الفصل الثالـث

الـدور السياسـي للهانـزا

- ويشتمل على:

1- التصدي لضعف الملوك في السيطرة على أمراء المقاطعات.

2- دور منظمة التيوتون في اتحاد الهانزا.

3- العقوبات التي فرضتها الهانزا على أعضائها المخالفين.

4- صراع اتحاد الهانزا مع فالديمار الرابع ملك الدانمارك ونتائجه.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

الدور السياسي للهانزا

1- التصدي لضعف الملوك في السيطرة على أمراء المقاطعات:

كان الارتباط الذي تم منذ سنة 351هـ/ 962م بين وظيفتي الملكية الألمانية والإمبراطورية الرومانية قد عاد بأوخم العواقب على كل منهما، لأن وظيفة الإمبراطورية العالمية أضحت سطحية وغير واقعية، في حين أدت مشاكل الإمبراطورية ومطالبها إلى انصراف الأباطرة عن شئون ألمانيا نفسها إلى غيرها من الشئون الخارجية وخاصة إيطاليا[1]، مما أضعف نفوذ الملكية الألمانية وعاد عليها بأوخم العواقب. وحسبنا ما أدت إليه السياسية الإمبراطورية من صدام بين البابوية وحكام ألمانيا، وهو النزاع الذي زعزع الأباطرة وبدد جهودهم وأموالهم؛ بل أدى إلى تغيبهم عن ألمانيا نفسها وقضاء معظم سنوات حكمهم في حروب لا طائل من ورائها في إيطاليا، حتى ألفي أمراء ألمانيا أنفسهم، وقد تحرروا من كل أثر لسيطرة الأباطرة ورقابتهم فانصرفوا إلى توطيد نفوذهم وسلطانهم الإقطاعي على حساب الإمبراطورية المتداعية. وثمة عامل آخر أسهم في إضعاف الإمبراطورية الألمانية، وهو أنها ظلت انتخابية بوجه عام في تقاليدها وفكرها، وبذلك حرمت الملكية الألمانية عن مميزات التقليد الوراثي الذي استغله ملوك إنجلترا وفرنسا المعاصرون في التمكين لأنفسهم ودعم سلطاتهم المركزية. حقيقة أن الحياة دبت في الملكية الألمانية من جديد عقب انتهاء فترة الشغور (648- 671هـ/ 1250- 1272م)[2]، ولكن بقاء هذه الملكية لا وراثية حرمها من أية فرصة

---

(1) جاء على رأس هؤلاء الأباطرة، الإمبراطور فريديك الثاني الذي جعل لصقلية وإيطاليا المكانة الأولى في برنامجه ونشاطه، مما زاد من أهمية العنصر الإيطالي في الحكومة الإمبراطورية، وذلك طبعاً على حساب ألمانيا. ولاعجب، فإن فريديك الثاني اعتبر نفسه صقلياً قبل أن يكون ألمانياً حتى أنه لم يمض في ألمانيا سوى تسع سنوات من حكمه الطويل الذي امتد من سنة 1212م حتى سنة 1250م. عن ذلك انظر:
- سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص404.

(2) في عام 1250م، توفي الإمبراطور فريدرك الثاني وبوفاته انتهت من الوجهة العملية الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وإن ظلت اسمياً حتى القرن التاسع عشر. وقد حدث أن توفي كونراد الرابع ابن فريدرك الثاني عام 1254م، وأعقب ذلك فترة استمرت عشرين عاماً ظلت ألمانيا طوالها مسرحاً للمنازعات والحروب الأهلية =

جديدة لفرض نفوذ السلطة المركزية على الأمراء المحليين.

وهكذا ظلت ألمانيا بعد سنة 671هـ/ 1272م، عبارة عن مجموعة من الدويلات الصغيرة، مع بقاء إمبراطور أو ملك على رأس الدولة يتمتع بسلطة اسمية، حتى سميت الفترة بين سنة 671، 925هـ/ 1272، 1519م في التاريخ الألماني باسم "عصر الأمراء". هذا في الوقت الذي أخذت – انجلترا وفرنسا – تمران بدور حاسم من أدوار التنظيم القومي المركزي تحت زعامة سلطة ملكية قوية. وإذا كانت ألمانيا قد استطاعت البقاء على قيد الحياة في ذلك الدور من أدوار تاريخها – على الرغم من تفككها – فإن الفضل الأكبر في ذلك يرجع قبل كل شيء إلى انشغال انجلترا وفرنسا في حرب المائة عام[1].

وعليه، نستطيع أن نلاحظ أن الفوضى ظلت ضاربة أطنابها في ألمانيا على الرغم من وحدة اللغة والتقاليد. حقيقة أنه كان هناك بلاط إمبراطوري؛ ولكنه استمر عديم النفوذ والسلطان. وهكذا وجد بألمانيا في أواخر العصور الوسطى أكثر من ثلاثمائة إمارة منفصلة، لا هم لأمرائها سوى إشعال الحرب والمنازعات المحلية فيما بينهم، والإغارة على المناطق المجاورة وسلب المسافرين، حتى أطلق على أمراء ألمانيا في ذلك العصر اسم "الفرسان اللصوص Robber Knights".

ومن الواضح أن هذه العوامل اجتمعت لتجعل من المتعذر إقرار الأمن والنظام في البلاد الألمانية، لأن كبار الأساقفة من جهة، والمدن من جهة ثانية، وكبار الأمراء من جهة ثالثة أجمعوا على التمسك بنفوذهم وعدم التخلي عن سلطانهم من أجل قيام سلطة مركزية قوية. هذا في الوقت الذي تمسك صغار الفرسان بحياة القتال والسلب والنهب مفضلين إياها على حياة الفقر[2].

وأمام هذه الفوضى السياسية والحروب والمنازعات بين الأمراء بحثاً عن المال كان لابد من أن يكون لاتحاد الهانزا دوراً في التصدي لهؤلاء الأمراء إزاء ضعف الملوك الألمان في مواجهتهم

= – دون إمبراطور يحكمها أويسوس شئونها مما جعل هذه الفترة تعرف بعصر الشغور (Interregnum) في التاريخ الألماني.

عن ذلك انظر:

– سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص404.

(1) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص ص 577- 578.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص ص 594– 595.

والتصدي لهم تحقيقاً وحفاظاً على المصالح التجارية.

والحقيقة الواقعة أن التجارة في العصر المتأخر للعصور الوسطى لم تعرف إلا في تلك الصورة الأولية، التي تعتبر القافلة من أهم خصائصها؛ فلم تتحقق التجارة براً وبحراً إلا بفضل ما تبثه الجماعة (النقابة) في أعضائها من الأمن المتبادل، وما تفرضه عليهم من نظام، وتلزمهم به من الخضوع للوائح، فلا تقلع السفن إلا إذا اجتمعت في شكل أساطيل صغيرة، ولا يرتحل التجار إلا في جماعات. فما يترتب على اجتماعهم من قوة، يكفل لهم الأمن والسلام[1]. وهو الأمر الذي أدركته المدن الألمانية إدراكاً كاملاً، إذ أنه من الملاحظ أن هذه الأوضاع السابقة بألمانيا لم تعرقل بأي حال التطور الحضاري الذي أسرعت ألمانيا في طريقة وقتئذ، فانتعشت التجارة حتى أصبحت ألمانيا مركزاً عالمياً للتجارة في غرب أوربا وأخذت تظهر أهمية كثير من المدن التي ازدهرت فيها الآداب والقانون والنشاط التشريعي، كما ظهر بعض الشعراء الألمان الذين حباهم فردريك الثاني بقسط من رعايته. وفي ذلك الوقت استمر النفوذ الألماني في اتساعه شرقاً وشمالاً حتى أصبح للألمان سيطرة على أراضي البلطيق والدانمارك فضلاً عن العناصر السلافية في الشرق[2].

تمكن الألمان من تحويل هذه العناصر السلافية إلى المسيحية إذ أن البر الرئيسي لساحل البلطيق Baltic في الوقت الذي بدأ فيه التجار التيوتون Teutonic لتجارتهم على هذا الساحل، لم يكن الساحل في حيازة أو ملكية الألمان؛ ولكن كان يسكنه وتعود ملكيته للشعوب السلافية Slavonic، الذين تشبثوا بالوثنية لفترة طويلة بعد جيرانهم في الشرق في الوقت الذي كان الغرب فيه قد أصبح يعتنق الدين الجديد. وكالعادة في مثل هذه الظروف، كان التاجر هو الذي سبق وبشر، فقد أعطي السكان الأصليين أول فكرة لوجود رمز مختلف من الأخلاق والآداب العامة[3].

إذ يذكر فيشر، أنه في القرن الحادي عشر الميلادي، أهابت فئة من كبار الأساقفة والأمراء في سكسونيا بالشعب الألماني أن ثمة عملاً عظيماً يرتقب أيديهم العاملة، ولو أنه جاء في أوقات

(1) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم الأوربية، ص 165.
(2) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص 404.
(3) Zimmern, The Hansa Towns, P. 24.

أحسن لكان مما نفع الملكية الألمانية أيما نفع. ذلك أن الأراضي التي تقع بين نهري الإلب والنيمن[1]، وتمتد في سهل طويل يشغى في العصر الحاضر بالزراعة الرائجة والمدن العامرة والقرى الجميلة، كانت وقتذاك أرضاً بائرة تخنقها الغابات، وتغمرها البحيرات والمستنقعات، ويسكنها قبائل تتكلم لساناً سلافياً غريباً، وتعبد آلهة وثنية أغرب، وقد استمال غموض تلك المساحات الشاسعة أساقفة سكسونيا وأمراءها وفلاحيها، وأغراهم ما وراء نهر الإلب من أراض للزراعة، وغابات للأخشاب، ومستنقعات للردم، ومواضع لبناء القرى، وقبائل وثنية للتبشير والتنظيم وفرض الضرائب وجمع الزكاة العشرية، فضلاً عن الإخضاع إلى أقصى درجات الإخضاع. ومصداق ذلك قول الأساقفة والأمراء السكسون – في وصف البلاد السلافية وأهلها: بأن "السلاف قوم ملاعين، ولكن أرضهم تفيض عسلاً، وسمناً، ولحماً، وحباً، ومن الطير ألواناً وأشكالاً، وتموج بكل ما تغل الأرض الخصيبة من الغلال التي لا تضاهيها أجود الغلال؛ وهكذا يقول العارفون: فيا أيها السكسونيون والفرنكونيون، واللوثارنجيون، وأهل الفلاندرز أصحاب الشهرة الواسعة، انفروا خفافاً وثقالاً، سوف تنقذون أنفسكم بخدمة الدين، وسوف تحصلون على أخصب الأراضي لتعيشوا فيها رغداً"[2].

وهكذا فإننا نجد أن هذه الأراضي كانت مليئة بالخيرات ومفتوحة في نفس الوقت أمام الألمان الذين نجحوا في استغلالها الاستغلال الأمثل.

ففي الواقع أن استعمار تلك السهول الشمالية الشرقية كان أكبر ما قام به الشعب الألماني في العصور الوسطى، حيث أخذ في فتح أرض السلاف بالفأس والمسحاة والبال والمحراث، وتولاها بالزراعة والتجارة وبناء الكنائس والمدن.

---

(1) نهر نيمن أو ممل: يقع في أقصى شرق قارة أوربا وينبع من الهضبة التي تقع الآن في وسط بلاروسيا، ثم يتجه ليمر بالحدود البولندية، ومن ثم يتوغل في الأراضي اللتوانية إلى أن يصب في بحر البلطيق. عن ذلك انظر:
- Ramsay, Andrew, Europe, Standford's Compendium of geography and travel, London, 1884, PP. 172- 181.

(2) فشر, تاريخ أوربا، جـ1، ص ص 152- 153.
- عن دور الألمان وتجار الهانزا في عمليات التنصير. انظر أيضاً:
- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ2، ص ص 122- 124.

ولم يخل الأمر من المقاومة، لكن الألمان استطاعوا شيئاً فشيئاً أن يتوغلوا في تلك الأرض، وأن يبنوا بساحل بحر البلطيق قرى صغيرة لصيد السمك، وما لبثت هذه حتى صارت مدناً تجارية كبيرة، وتكونت منها العصبة الهانزية التي ملأت بحر البلطيق بسفنها، وجعلت من ذلك البحر ثاني الطرق التجارية العظمى في تلك العصور[1]. على أن ما قام به التجار الألمان على التربة السلافية، من بناء مختلف المدن والموانئ أصبحت في وقت لاحق مفخرة وقوة للاتحاد الهانزي[2]. وكذلك ما قاموا به من تسوية الأراضي الجديدة والتوسع الاقتصادي السريع الذي واكب هجرة الألمان من وادي الرين Rhine وسهول ألمانيا إلى الأراضي الصقلبية جنوب البلطيق، قد أثر في النمو الهانزي. وفي مستهل القرن الثاني عشر الميلادي طوق نهر الإلب تلك المناطق التي اتحدت بعد ذلك تحت مسمى الإمبراطورية الرومانية المقدسة لشعب ألمانيا في الشمال الشرقي. ولم تنجح المحاولات الأولى لإخضاع قبائل الونديين Wendish، والأوبوتريتي Obotrite، والبوميريين Pomeranian، وليوتزي liutize، وهيفيليان Hevellian[3]، الوثنية التي كانت تعيش شرق نهر الإلب في عام

(1) فيشر، تاريخ أوربا، جـ1، ص153.

(2) Zimmern, The Hansa Towns, P. 24.

(3) تعددت القبائل الوندية (السلافية) وانقسمت إلى أقسام مختلفة تاخمت الحدود الشرقية لألمانيا، على أننا يمكننا أن نميز بينها وذلك بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: القبائل السلافية التي احتلت المنطقة الشمالية الشرقية الواقعة بين نهري الإلب والأودر.

ثانياً: القبائل السلافية التي احتلت المنطقة الجنوبية الشرقية. انقسم سلاف المنطقة الشمالية الشرقية إلى عدد من القبائل أشهرها:

1- الأبودريني Abodriti أو Apodriti التي تعيش في الشمال والشرق من نهر الإلب ومدينتهم الرئيسية ميكلنبرج Mecklenburg الحديثة.

2- فيما ورائهم كانت قبائل الويلتز Wiltzw أو الويلاتابيان Welatebians على الضفة اليسرى من نهر الأودر غرب بوميرانيا Pomerania على نهر البلطيق Baltic وتكون هذا القسم من أربع أو خمس مجموعات أخرى أهمها الريداري Radarii وقبائل اللونيتز Lyutitizi أعلى نهر الأودر على الضفة اليسرى منه. 3- الواجريان Wagrians. 4- العرب Sarbs.

ثالثاً: القبائل السلافية التي سكنت الحدود الجنوبية الشرقية لألمانيا كان أهمها التشيك Czechs أو البوهيميون وشغلوا المنطقة الجنوبية من الإلب. عن ذلك : =

597هـ/ 1200م. بعد ذلك تسبب النمو السكاني ومعرفة طبقة النبلاء بألمانيا بتخوم القبائل الوثنية؛ في قيام المهاجرين الألمان بغزو أراضيهم وإعادة توطينها وتنميتها.

لقد غزا الألمان قبائل غير مهيبة الجانب وقاموا بتحويلهم إلى النصرانية، وقاموا باستغلال الأراضي والموارد لجعلها الأكثر إنتاجية، وطبقوا قانون ألمانيا والرسوم الجمركية عليها. واتبع المزارعون الجنود والمبشرين واتبع التجار المزارعون. وفي ذلك الوقت كانت الحدود الإقليمية لأمراء ألمانيا ممتدة إلى الجانب الشرقي إلى المنتصف بين نهري الأودر Oder[1]، وفيستولا Visula.

نشأت مدن ألمانيا بالقرب من أو ربما داخل المستعمرات القديمة للسكان الصقالبة السابقين. في عملية الاستيطان السريعة تطورت المدن الجديدة وأصبحت لها سمات مستحدثة والتي أثبتت أهميتها في نمو الهانزا Hanse[2].

برزت المدن الألمانية كقوة اقتصادية (صناعية – تجارية) منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وقد دعم بعض الملوك الألمان تلك المدن ومنحوها الامتيازات للحد من نفوذ الأمراء الإقطاعيين والأساقفة وتسلطهم على شئون الحياة الاقتصادية والسياسية في البلاد. وعلى هذا أضحت طبقة الصناع والتجار قوة فاعلة في حياة المدينة الألمانية واقتصادها. وشكل هؤلاء الصناع والتجار النقابات كي ترعى مصالحهم وتدافع عن حقوقهم. وقد ترك التجار الألمان الأمراء الإقطاعيين والأساقفة يتقاتلون مع الملوك والأباطرة على السلطة السياسية واهتموا بتدعيم نشاطهم التجاري داخل ألمانيا وخارجها[3].

= – وفاء مختار غزالي، السياسية الخارجية لألمانيا (عهد أوتو الأول 936- 973م في العصور الوسطى)، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2013م، ص ص 142- 143، لمزيد من المعلومات عن السلاف. انظر:
- Maclear (G. F)., The Slave, London, 1879.
- Hodges (L.), Slave on Southern Farms, Washington, 1914.
– وسام عبدالعزيز فرج، **السلاف في شبه جزيرة البلقان**، المجلة التاريخية المصرية، مجلد 30، 31، 1983، 1984م.

(1) نهر الأودر Oder: هكذا يعرف بالألمانية ولكن يعرف في بولنده Odra. عن ذلك انظر:
- Setton (A.), ed., history of the Crusades, Vol. IIII, Wisconsin, 1975, P. 716.

(2) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, PP. 5-8.

(3) نعيم فرج، الحضارة الأوربية، ص147.

وقد تمسكت هذه المدن بكافة حقوقها التي حصلت عليها داخل ألمانيا أو خارجها ورفضت التنازل عن أي من الامتيازات التي حازتها واتحدوا معاً للتصدي لضعف الملوك الألمان في السيطرة على الأمراء وذلك لحماية تجارتهم وتجارهم.

أصاب التجار الألمان في القرن الثالث عشر الميلادي حظاً من التجارة لم يسبقهم فيه إلا الإيطاليون. فكل أوربا من أطراف الفلاندرز إلى بلاد الصقالبة، طرقها التجار الألمان. ولم تلبث كولونيا (كلن) التي تتحكم في تجارة الراين، أن صار لها السيادة؛ وكلما انصرف الفلمنكيون إلى إنتاج الأقمشة الصوفية، على حساب إغفال التجارة الأصلية، أضحى تجار كلن الوسطاء بين شمال ألمانيا وجنوبها.

وفي أواخر القرن الثالث عشر أضحى ملوك ألمانيا من الضعف أنهم عجزوا عن السيطرة على الأمراء، فتألف من المدن الإمبراطورية "المشهورة بالمدن الحرة" اتحادات من أجل الحماية المتبادلة، فتألف اتحاد الهانزا من مجموعة من المدن بشمال ألمانيا بزعامة لوبيك Lübeck، لحمل الأمراء على حماية التجار وإنشاء السفن الحربية لمقاومة القرصنة، ولإقامة مستودعات تجارية؛ ومن أشهر هذه المحلات، المحلة المعروفة بلندن London باسم Steelyard (دار القبان).

واتخذت العصبة تدابير مع سائر المدن الحرة في جميع أنحاء ألمانيا، فصارت الطرق البرية تربط ألمانيا وإيطاليا، فاستأثرت بمعظم تجارة إيطاليا والشمال[1].

إذاً نستطيع أن نؤكد على أن مدن الهانزا اتحدت معاً من أجل تبادل الحماية والتصدي لضعف الملوك الألمان في السيطرة على الأمراء، وذلك من خلال محطاتهم التجارية وتطبيق قوانينهم الخاصة من خلال القوة التي حازوها من اتحادهم ومن الامتيازات التي حازوها. فقد كان تجار مدن البلطيق Baltic، يعرفون بالشرقيين، إما لأنهم قدموا من مناطق شرقية غير معروفة أو لأنهم يتعاملون مع مناطق في الشرق عن طريق نوفجورود Novgorod. وكانت حرية التجارة في المحطات التجارية الهانزية. هي الاختبار الحقيقي لرجل الهانزا الحقيقي. وفي يوم عيد مدينة لوبيك عام 768هـ/ 1366م، اعتمدت قاعدة أساسية لا تسمح لأي تاجر من دخول مدينة نوفجورود إذا لم يكن عضواً في منظمة الهانزا، ويرى آخرون أن المقيم على الأرض يقبل في الاتحاد، ولكن لابد أن

(1) السيد الباز العريني، الحضارة والنظم الأوربية، ص ص 129-130.

يكون مؤهلاً للعمل في التجارة الروسية وإذا لم يمارسها لن يصبح كامل العضوية[1].

الأمر الذي يؤكد تشدد الهانزا في التعامل داخل مناطق نفوذها رغبة منها في ممارسة السيطرة الاحتكارية وتحقيق الحماية كذلك خاصة في منطقة مهمة مثل نوفجورود التي كانت تمثل أحد محطاتها المهمة.

كانت الهانزا في جوتلاند، مجرد حارس تقدمي على مدن البلطيق. كانت تُحكم هذه المنطقة، في القرن الثالث عشر الميلادي، عن طريق لوبيك Lübeck، وويزبي Wisby، ودورتموند Dortmund، وسست Soest، وهي نفس المدن الأربع التي سيطرت وتحكمت أصلاً ومنذ النشأة في شئون نقابة نوفجورود Novgorod.

كانت لوبيك، وويزبي، في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، يديران معاً نوفجورود، وعندما اقترحت لوبيك، من خلال الاجتماع العام للمدن، في عام 768هـ/ 1366م، لتحقيق شئون معينة لنوفجورود، احتجت ويزبي بأن هذه الأمور كانت في أيدي ويزبي ولوبيك وحدهما[2].

إذاً فإن هذه المدن حافظت على مكتسباتها جيداً حتى أن بعضها كافحت كثيراً من أجل المتاجرة مع مدن الهانزا وفي نطاق نفوذها ومن هنا ندرك أهمية التحالف الذي تم بين هذه المدن خاصة من أجل الحصول على الامتيازات وأيضاً من أجل تأمين الطرق من الأمراء الذين كانوا يقومون بالسطو على التجار بما كانوا يفرضونه عليهم من مكوس وضرائب باهظة[3]. خاصة أن هذه المدن أصبح لها سمات مستحدثة والتي أثبتت أهميتها في نمو الهانزا Hanse. وتم إنشاء مراكز تجارية متميزة يرأسها مواطنين من الطبقة الأرستقراطية التجارية الجديدة والتي أجرت قوانين موحدة في مجالس المدينة أوراتس RATS[4]. إذ أن هذه المدن الجديدة قد أحرزت استقلالية غير مسبوقة

(1) Colvin, The Germans in England, P. 34.
(2) Colvin, The Germans in England, PP. 34- 35.
(3) حيث ظهر بعد الشكاوي من مدن الهانزا في مجلس لوبيك من جراء اختلاف المعايير المتنوعة لبراميل الرنجة. عن ذلك انظر:
- Asfchenfeldt (ed.), urkundenbuch der stadt Lübeck, Zweiter theil, P.603.
(4) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, P. 8.
– قد استطاعت بعض المدن الألمانية، مثل مدن الإمبراطورية أو المدن الكنسية أن تتحرر من الوصاية الأميرية، – خاصة بعد أن استفادت بصورة كبيرة من نهضة وازدهار المبادلات التجارية – فنظمت نفسها =

في تلك العصور ونمت وحدها بعيداً عن سلطة السادة الإقطاعيين.

2- دور منظمة التيوتون في اتحاد الهانزا:

ظهرت منظمة الفرسان التيوتون The Order of Teutonic Knights، في تاريخ السياسة التجارية، إذ كان لها موقعاً فريداً بين قوى البلطيق حيث كانت تقع في منطقة إقليمية وفي نفس الوقت عضواً من أعضاء المجموعة الهانزية. وقد ازدهر هذا الموقع أكثر وأكثر حيث انتشرت التجارة البروسية[1]، بسرعة كبيرة في أواخر القرن الرابع عشر، وظهر النظام كموقع تجاري ضخم يجتذب تجار المدن البروسية التي كانت تنمو بمعدل سريع[2]. إذ بعد تأسيسها في عام 586هـ/ 1190م تولت تلك المنظمة مسئولية الأراضي الشرقية للبلطيق وأصبحت من أكبر الجهات المسئولة عن الهانزا سياسياً[3].

وترجع أهمية هذا الموقع بالنسبة لمنظمة التيوتون في أن هذه المنظمة كانت خليطاً من منظومة مالية قوية إلى جانب سيطرتها السياسية على المدن الواقعة في الأقاليم التابعة لها. فقد أصبح

= جميعاً تحت إدارة مجلس (RAT) الذي يوزع ويفرض الرسوم البلدية ويؤمن السلطة القضائية على سكان المدينة. عن ذلك انظر:

- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ2، ص 602.

(1) امتدت الأراضي البروسية على طول السواحل الجنوبية لبحر البلطيق، من نهر نيمن Niemen، في الشمال الشرقي وحتى نهر فيستيولا، والذي يفصلهم عن إقليم بوميرانيا، في الغرب. ومن الجنوب كانت تحدها مملكة بولندا، وبصفة خاصة إقليم مازوفيا Mazowia البولندي. وإلى الشرق تقع ليتوانيا.

- والواقع أن المؤرخ والجغرافي الألماني آدم من بريمن Adam of Bremen كان أول من أطلق اسم البروسيين Pruzzi على سكان تلك المنطقة، وذلك عندما قام بزيارة لكل من شبه جزيرة اسكندنافيا ومنطقة شمال وشرق أوربا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي. وقدم آدم وصفاً مقتضباً للبروسيين من حيث ديانتهم وأنشطتهم الاقتصادية وعلاقاتهم الاجتماعية فيما بينهم وعلاقاتهم بالقوى الاسكندينافية عبر بحر البلطيق. انظر: محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص31. لمزيد من التفاصيل. عن ذلك انظر:

- Machray, Robert, la Prusse Orientale et La Paix, London, 1943, P. 15; Urban, William, The Prussion Crusade, New York, 1980, PP. 66-67.
- Adamus Gesta Hammabur gensisi ecclesiae Pontificum, ed. Waitz, G. (Berolini, 1876).

(2) Postan, the Cambridge economic History of Europe, Vol. III, P. 390.

(3) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, P. 8.

لديهم فائضاً مالياً تمثل في تجارة الحبوب واحتكار المنظمة لتجارة الكهرمان[1]، مما أدى إلى وجود عاصمة تجارية في البداية على أساسها قام حكام كوينجسبيرج Konigsberg[2]، ومارينبيرج Marienburg، بإقامة تجارة منظمة تنظيماً جيداً على طول بحر البلطيق، وبحر الشمال. وقد ازدادت حاجة إنجلترا والفلاندرز للحصول على الحبوب التي تتحكم فيها المنظمة بالإضافة إلى تصديرها للذرة. وقد تدرج الأمر حتى شمل جميع السلع الرئيسية لصادرات بروسيا Prussia من الشمع والنحاس والجلود إلى جانب الحبوب والكهرمان. من ناحية أخرى فإن التيوتون كانوا من أكبر المستهلكين وتمثلت وارداتهم بشكل رئيسي في الملح والأقمشة والتوابل[3].

كانت المنظمة قد توعدت بحيازة خالصة للأرض الواقعة تحت سيطرة النبلاء البولنديين Polish، ساعين إلى استقرار الحدود الشمالية، ثم بعد ذلك غزى الفرسان التيوتون،

---

(1) الكهرمان: عبارة عن مادة صمغية (راتينج) تفرزه جذوع بعض أنواع الأشجار من العائلة الصنوبرية، وتفرز الأشجار هذه المادة كوسيلة دفاعية لها ضد الأمراض والحشرات ومع مرور ملايين السنين تتحجر وتتحول إلى صخور كهرمان بألوان وأشكال مختلفة على حسب البيئة المحيطة بها.

(2) Konigsberg: تعرف حالياً بإسم Kaliningrad، وهي ميناء بحري ومركز إداري في روسيا الاتحادية. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. V, P.670.

(3) Postan, the Cambridge economic History of Europe, Vol. III, P. 390.

- قد أخذت منظمة الفرسان التيوتون The Order of Teutonic Kinghts، ترعى مصالح العصبة في بروسيا، إذ نجد السيد الكبير Grand Master، ينوب عنهم في التفاوض مع الملوك الإنجليز على المعاهدات. عن ذلك انظر:

- Colvin, The Germans in England, P. 36.

- كان الاسكندينافيون سباقون في توجيه أنظارهم نحو الأراضي البروسية، فقد نجح الفيكنج في السيطرة على أجزاء كبيرة من بروسيا في القرن التاسع. ولكن يبدو أن سيادة الفيكنج تلك كانت سيادة اقتصادية أكثر منها سياسية، ذلك لأن آدم من بريمن يذكر أن الدانمركيين الذين مارسوا= =أعمال القرصنة على نطاق واسع في بحر البلطيق، كانوا قد احتلوا معظم سواحله الجنوبية. وبالنظر إلى الثروات التي كانت تزخر بها الأراضي البروسية – والتي يذكرها آدم نفسه – مثل الذهب والفضة والعنبر والفراء، فإنه من المؤكد أن الفيكنج تسيدوا شمال بروسيا اقتصادياً منذ القرن التاسع الميلادي. وما يؤكد ذلك قول المؤرخ ماكراي من أن القراصنة الاسكندينافيين لم يسعوا إلى القيام بغزوات شاملة لاحتلال بروسيا، وإنما كان هدفهم هو البحث عن غنائم وفرض الإتاوات. عن ذلك انظر:

- محمد السيد رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص34.

Teutonic Knights سكان بروسيا الأصليين وأصبحوا الحكام المطلقين لهذه المنطقة في عام 682هـ/ 1283م[1].

وإذا تناولنا موضوع غزو الفرسان التيوتون لبروسيا – تلك المنطقة التي تتمتع بموقع استراتيجي مهم على بحر البلطيق– بشيء من التفصيل سنجد أن هؤلاء الفرسان قد قدموا إلى تلك المنطقة بداية بناءً على دعوة بعض الدوقات البولنديين؛ أمثال الدوق كونراد دوق مازوفيا وكويافيا (583- 645هـ/ 1187- 1247م) Konrad of Masovia and Kujawia[2]، الذي فكر في الاستعانة بهم ليتمكن من درء أخطار البروسيين عن بلاده، لذا كتب إلى السيد الكبير لمنظمة الفرسان التيوتون هرمان فون سالز Hermann Von Salza[3]، (607-

(1) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, P. II.

(2) كونراد Konrad: أحد أشهر دوقات بولندا المنحدرين من سلالة بياست التي حكمت بولندا في الفترة 1086- 1370م ابن كازمير الثاني ملك بولندا (1138- 1194م) حكم بعد وفاة والده تحت وصاية والدته، وفي عام 1202م تسلم مقاليد حكم دوقيتي مازوفيا وكويافيا في شمال بولندا. وتكمن شهرته في أنه هو الذي جاء بمنظمة الفرسان التيوتون إلى المنطقة، وبناءاً على ذلك فإن المؤرخين البولنديين غالباً ما يلقون عليه بالائمة في الأحداث الجسام التالية التي حلت ببولندا، وكادت تؤدي بها إلى فقدان استقلالها. وعن ذلك انظر:

- محمد السيد رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص39، حاشية (1). لمزيد من التفاصيل انظر:
- Jedlicki (M.Z.), " German Settlement in Poland and the Rise of Teutonic Order" in: Cam. Hist. Pol., Vol. 1, Cambridge, 1950, PP. 140-141.

(3) هرمان فون سالزا (1179- 1239م): السيد الرابع للمنظمة، وأحد أهم الشخصيات السياسية في عصره. ينحدر من أسرة متوسطة من منطقة ثورنجيا بوسط ألمانيا، ولم تكن عائلته ثرية أو ذات أصل نبيل؛ وإنما كان والده فارساً علمانياً بسيطاً، وأحد مقطعي الكونت الشهير هرمان فون ثورنجيا، والذي دعم الحملات الصليبية على الأراضي المقدسة بكل ما يملك. وقد وصلت المنظمة خلال فترة توليه لأقصى درجات القوة خاصة في الشرق الإسلامي، وانهالت عليها الهبات والمنح من كثير من ملوك أو أمراء غرب أوربا المهتمين بالحركة الصليبية. عن ذلك انظر:

- محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون في شرق أوربا، ص41، حاشية (1). لمزيد من التفاصيل. انظر:
- Kantorowicz (E.), Fredrick the second, London, 1931, P. 88.
- عن هرمان دي سالز المؤسس الحقيقي للجماعة وما حققته الجماعة في عهده. انظر أيضاً:
- حسن عبدالوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص151 وما بعدها.

637هـ/ 1210- 1239م)، واعداً إياه بكل ما يمكن أن يستولي عليه في مقاطعة كولم Kulm[1]، إذا وافق على التدخل بجيوش المنظمة لحماية حدوده من البروسيين[2].

والواقع أن السيد الكبير هرمان فون سالزكان على دراية جيدة بكافة الأوضاع في منطقة البلطيق، فقد سمع الكثير عنها أثناء زيارته الطويلة لشمال ألمانيا، في عام 620هـ/ 1223م، والتي أرسله إليها الإمبراطور فرديك الثاني (1194- 1250م) Fredrick II، الذي كانت تربطه بهرمان علاقة وطيدة. لذلك عند تلقيه الدعوة التي وجهها له الدوق كونراد لم يتوان في قبولها، لاسيما وأنه كان يعلم أن كونراد لم تكن لديه القوة العسكرية القادرة على طرد المنظمة عند حدوث أي نزاع[3].

ولعل سر ترحيب هرمان بهذه الدعوة أنه وجد فيها فرصة لتأسيس دولة مسيحية بشمال أوربا تغنى منظمته عن متاعبها، خاصة بعد وضوح تدهور أوضاع الصليبيين في بلاد الشام وتضاؤل أي فرص مستقبلية للتوسع؛ ولكن هرمان كان حريصاً في أول الأمر على ألا يعمل لحساب أحد وأن يضمن استقلال الفرسان التيوتون في مقرهم الجديد، فحصل من الإمبراطور فردريك الثاني على شهادة رسمية باستيلاء المنظمة في المستقبل على منطقة كولم، زيادة على بقية الأراضي التي تفتحها المنظمة في المستقبل، على أن يتمتع الفرسان التيوتون في هذه الأجزاء بسلطة تامة في النواحي الاقتصادية وبخاصة سك العملة وفرض الضرائب[4].

وذلك نظراً لأن هرمان فون سالزكان خائفاً أن يتراجع كونراد عن بعض وعوده التي وعد بها المنظمة، لذا كان سعيه للحصول على ضمان أقوى من سلطة أعلى، ولم يجد أفضل من صديقه

(1) مقاطعة كولم: تقع على الحدود بين بروسيا وماسوفيا. عن ذلك انظر:
- سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص623.

(2) محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص40؛ انظر كذلك: سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص623.

(3) محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص41.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص623.

الشخصي وحامي المنظمة الإمبراطور فردريك الثاني[1]. وعلى ما يبدو أن الإمبراطور أدرك أنه لن يخسر شيئاً إذا منح الفرسان التيوتون ما أرادوا؛ بل ربما تحقق مكاسب كبيرة إذا اتسعت رقعة الإمبراطورية المقدسة لتشمل بروسيا[2].

وبذا اكتسبوا الأساس الشرعي لوجودهم في المنطقة سواء قبل البولنديون ذلك أو رفضوا. وقد وصلت طليعة جيش الفرسان التيوتون إلى كولم، في عام 626هـ/ 1226م، عازمين على تأسيس مركز للمنظمة في أراضي كولم حتى يمكنهم التوسع منه. ثم أخذت تصل قوات أخرى من الفرسان إلى هناك من أجل إتمام غزو بروسيا، إلى جانب تمتعهم بالدعم المالي والعسكري اللامحدود من الدوق كونراد[3].

وهكذا أخذ الفرسان التيوتون ينزحون إلى بروسيا منذ سنة629هـ/1231م، وبدءوا يغزون الأراضي الوثنية المجاورة بنجاح كبير، لأنهم بالرغم من قلة أعدادهم نسبياً امتازوا بقوة أسلحتهم ودرايتهم بشئون الحرب[4]. إلى جانب ما قام به البابا جريجوري التاسع[5] (625-

(1) نعمت منظمة الفرسان التيوتون بحق الحماية الإمبراطورية من الإمبراطور فردريك الثاني في الشرق والغرب على حد سواء بما منحهم من امتيازات. عن ذلك انظر:
- حسن عبدالوهاب، تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ص 32، 60؛ نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ2، ص 124.

(2) عرفت الوثيقة التي منحها الإمبراطور فردريك للمنظمة، في عام 623هـ/1226م، بالوثيقة الذهبية Golden Bull of Rimini، والتي تُعد واحدة من أهم الوثائق في تاريخ منظمة الفرسان التيوتون. عن ذلك انظر:
- محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص 42- 43.

(3) محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص 44، 49.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص625.

(5) البابا جريجوري التاسع: تولى خلفاً للبابا هنريوس الثالث عام 1227م، وعلى الرغم من أنه كان طاعناً في السن؛ إلا أنه امتاز بإرادة حديدية لا تفل، لذا دخل في صراع طويل مع الإمبراطور فردريك الثاني – في إطار النزاع بين البابوية والإمبراطورية – وعلى الرغم من توقيعه قرار الحرمان ضد فردريك أكثر من مرة؛ إلا أن النزاع ظل قائماً ولم يستطع الانتصار عليه حتى وفاته في أغسطس 1241م، وهو في الثامنة والتسعين من عمره.عن ذلك انظر:
- سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص ص396-401.

639هـ/1227- 1241م)، في يناير 630هـ/1232م، بتوجيه نداء للأمراء ورجال الدين المسيحيين في كل من بولندا وبوهيميا، حثهم فيه على مساعدة المنظمة في مهمتها وذكرهم بما يعانيه المسيحيون من أهوال.

تجمعت جيوش ضخمة استجابة لهذا النداء، وفي بداية عام 631هـ/ 1233م عندما اكتمل وصول الحشود إلى كولم، التقى الصليبيون مع البروسيين عند نهر سيرجيون Sirgune، أحد فروع الفيستولا، واشتبك الطرفان في معركة دامية. بيد أن القوات الصليبية كانت أكثر عدداً وعدة، وأفضل تنظيماً، في حين أن البروسيين قاتلوا في فوضى عارمة، لذا نجح الفرسان التيوتون وحلفائهم في هزيمتهم هزيمة ساحقة وهكذا أصبحت غرب بروسيا كلها في قبضة الفرسان، لا ينازعهم فيها أحد[1].

ومنذ ذلك الحين أخذت منظمة الفرسان تبرهن على الوحدة المطلقة في بروسيا ومن خلال الانضمام للعصبة الهانزية، فإن التجار الألمان تمكنوا من تحقيق سيطرة تجارية ذات نجاح معقول. لكن من خلال المزيد من التعاون بين أعضاء الرابطة فإنهم بدءوا في تطبيق أنشطتهم التجارية الاحتكارية[2]. خاصة مع ما نالوه من دعم وحماية البابا جريجوري التاسع في 3 أغسطس 632هـ/1234م، إذ وافق على استقلالهم بكل ما يفتحونه من بلاد الوثنيين مقابل دفع ضريبة اسمية للبابوية مع حثهم على أن يكون حكمهم إيذاناً بنشر الأمن والسلام في الأراضي البروسية[3].

ومنذ ذلك الحين تمتعت منظمة التيوتون بقوة لا يمكن إنكارها وكانت عاملاً واضحاً في ازدهار الهانزا. خاصة منذ أن استقرت منظمة التيوتون في أراضي البلطيق بروسيا، وأيضاً في استونيا Estonia[4]، وليفونيا Livonia، مما ساعد المنظمة في الوصول إلى الأسواق والمواد ذات

(1) محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص 50- 52.

(2) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, P. 55.

(3) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص ص 623- 625؛ محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص 54- 55.

(4) استونيا Estonia: تُعد استونيا واحدة من أصغر جمهوريات البلطيق السوفيتية الثلاث (ليتوانيا ولاتفيا واستونيا). عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. III, P.972.

الأهمية. وقد اهتم الرؤساء بالتنمية الاقتصادية مثل غيرهم من الأمراء الألمان وقاموا بتشجيع التجارة في مناطق نفوذهم[1]. خاصة أن فرسان منظمة التيوتون قد تمكنوا من الحصول على حقوق سيادة في بروسيا، شبيهة بالحقوق التي يتمتع بها كل الأمراء الألمان[2].

أظهرت منظمة التيوتون وحدة فريدة من نوعها فيما يخص اتحاد الهانزا خاصة أن هذه المنظمة نشأت في ظل الظروف الحربية للحملات الصليبية[3]. وحتى الهزيمة التي حلت بها في عام

(1) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, P. 32.

(2) نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ2، ص 124.

(3) الحروب الصليبية امتدت (488- 690هـ/ 1095- 1291م)، وهي الفترة الممتدة بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، الحركة الصليبية (صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى)، جـ1، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1999م، ص ص25-26.

- قد أسهمت المنظمات الدينية بنصب واضح في الحروب الصليبية، وهي جماعات من الرهبان المحاربين، ممن سخروا أنفسهم لخدمة المرضى والجرحى الصليبيين من ناحية، ورغبوا في خدمة القضية الصليبية عن طريق المساهمة في المعارك التي دارت رحاها بين الصليبيين والمسلمين من ناحية أخرى. وفي البداية اقتصر دور هذه الجماعات على أعمال تمريض وعلاج الجنود الصليبيين المصابين في المعارك، ولكن بمرور الوقت تحولت هذه الجماعات الخيرية إلى منظمات دينية حربية، قامت بدور كبير في الصراع الصليبي الإسلامي. ومن هذه المنظمات الاسبتارية Hopitallers، والداوية Tempelares، منظمة الفرسان التيوتون الألمانية. عن ذلك انظر:

- محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص أ، ب، جـ. لمزيد من التفاصيل عن الحروب الصليبية انظر:

- Archer (T.), Kingsford (C.), The Crusades, London, 1894.
- Stevenson (W.B.), The Crusades in the East, Cambridge, 1907.
- Atiya (A.S.), The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938.
- Setton (K.M.), A history of the Crusades, Vol.5, Pennsylvania, 1958-1985.

- ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة/ السيد الباز العريني، ثلاث أجزاء، بيروت، لبنان، 1913م؛ جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، ط.2، دار المعارف، القاهرة، 1967م؛ كلودكاهن، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة/ أحمد الشيخ، ط.1، سينيا للنشر، القاهرة، 1995م؛ حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، القاهرة، 1947م؛ عليه عبدالسميع الجنزوري، الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م؛ قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (الأيديولوجية – الدوافع – النتائج)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية =

813هـ/1410م، فقد كان رؤساء المنظمة أقوياء جداً عكس أمراء الأقاليم المجاورة الذين كانوا يمنحون العضوية في اتحاد الهانزا وبذلك ظهر التيوتون الذين يحكمون بروسيا وما يتبعها أكثر تماسكاً من المناطق التي مازالت تحت حكم السادة الإقطاعيين ووضح أن هذا الاتحاد المتين في الحكم البروسي التابع للتيوتون أعطى الهانزا سلطة سياسية أكثر. فقد خطط الفرسان التيوتون أثناء استيلائهم على ميناء دانزيج Danzing، على البلطيق، والواقع على نهر الفيستولا Vistula، لبسط نفوذهم على التجارة البولندية الواسعة[1].

حققت المنظمة مكاسب هائلة، من الناحية الاقتصادية، منذ أن احتلت مدينة دانزيج في شرق بوميراليا Pomerelia[2]، ذات الموقع الاستراتيجي الرائع، والتي كانت تمثل المنفذ الوحيد لبولندا على بحر البلطيق، بل إنها أصبحت بذلك عنصراً فاعلاً في العصبة الهانزية لأنها بذلك حصلت على أموال طائلة من جراء تحصيل الرسوم الجمركية التي كانت تدخل وتخرج من وإلى معظم دول البلطيق ووسط أوربا، بل أنها – بمرور الوقت– احتكرت سلعاً تجارية معينة، مثل العنبر، وفرضت قيوداً على الحركة التجارية في أراضي تلك المنطقة[3].

= والاجتماعية،القاهرة، 2001م؛ محمود سعيد عمران، تاريخ الحروب الصليبية 1095- 1291م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995م؛ محمد مؤنس أحمد عوض، الحروب الصليبية (العلاقات بين الشرق والغرب)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1999-2000م؛ أ. باركر، الحروب الصليبية، ترجمة/ السيد الباز العريني، ط/1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1967؛ يوشع براور، عالم الصليبيين، ترجمة/ قاسم عبده قاسم، ومحمد خليفة حسن، ط.1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1999م؛ هـ.إ. ماير، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة/ محمد فتحي الشاعر، القاهرة، 1999م.

(1) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, PP. 11-12.
– تتميز دانزيج بأنها تطل على بحر البلطيق ونهر الفستيولا، وهي واحدة من أهم موانئ بحر البلطيق، عن ذلك انظر:
– سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص 627.

(2) بوميراليا Pomerelia: هي إحدى الولايات التابعة لبروسيا، يحدها شمالاً جزءً من بحر البلطيق، وجنوباً بولندا Poland وغرباً Pomerania. عن ذلك انظر:
- The Edinburgh Gazetteer or Compendious Geographicad dictionary, London, 1829, P.557.

(3) محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون في شرق أوربا، ص ص147، 149.

وفيما يتعلق بعلاقات التيوتون السياسية مع الدول التي يتعاملون معها، فإن المنظمة حافظت على وضع الازدواجية العملية، فأحياناً تظهر كشريك تجاري وأحياناً أخرى كقوة ذات سيادة تُعنى بالمسئوليات الدولية. وعلى صعيد آخر فقد كان للمنظمة وكلاء دائمين في لوبيك، وبروج، وإنجلترا، واسكتلند Scotland، لتمثيلهم هناك؛ لكن المنظمة كانت دائماً قادرة على استخدام الدهاء الدبلوماسي إذا لزم الأمر. لأنه كان بإمكان التيوتون أن يدرجوا في قوانينهم نظمهم الدينية، والعسكرية التي أثبتت قوتها ونفذت في المدن البروسية التي تُعد أساس رابطة الوحدة الهانزية[1].

وقد وضحت هذه الازدواجية في عام 785هـ/ 1383م عندما تفاعل السيد الكبير Grand Master، مع القراصنة في الجزء الجنوبي لبحر الشمال عن طريق حظر الإبحار من الموانئ البروسية. أما المدن الهانزية غير البروسية فقد كانت قلقة بشأن خروج سفن من المياه البروسية واحتجت على هذا الحظر. وفي عام 790هـ/ 1388م أعلن مجلس الهانزا الحصار الاقتصادي على الفلاندرز مرة أخرى لإجبار دوق بيرجنديا Burgundy على دفع بعض التعويضات. وقد ناشد الدوق السيد الكبير بأن يقوم بدو الوسيط – وهو الدور الذي قام به على مدار عدة سنوات دون أن يحقق كثيراً من النجاح[2]؛ لكن أثناء هذه الأعوام قامت بعض السفن البروسية بالإبحار إلى الفلاندرز رغم صدور الحصار الاقتصادي ورغم وعود السيد الكبير بالتضامن مع الهانزا.

إن ازدواجية السيد الكبير كانت واضحة على الرغم من أنه من المستحيل بالنسبة له أن يتنحى جانباً وذلك لأجل وجود أسباب سياسية[3].

تسببت هذه السياسة في توتر العلاقات بين منظمة التيوتون والهانزا. إذ نرى فيما يتعلق

(1) Postan, the Cambridge economic History of Europe, Vol. III, P. 390.

(2) كانت مدن الهانزا الألمانية في حالة ترابط معاً لرعاية مصالحهم التجارية في الخارج، إذ بدا نظام الفرسان التيوتون يرعى مصالحهم في بروسيا، كما نجد السيد الكبير ينوب عنهم في التفاوض على المعاهدات مع الملوك الإنجليز. وقد كان الإمبراطور في نهاية المطاف هو الحامي، لنظام الإمبراطورية من خلال محكمة الاستئناف السياسية الخارجية. عن ذلك انظر:

- Colvin, The Germans in England, P. 36.

(3) Postan, the Cambridge economic History of Europe, Vol. III, PP. 390-391.

بعلاقات المنظمة مع إنجلترا فإنها حافظت بقوة أكبر على السياسة أكثر مما حافظت عليها الهانزا في مواجهة الهجوم على الامتيازات الهانزية التي تعرضت لها أثناء حكم ريتشارد الثاني Richard II؛ حيث أن كلاً من المنظمة والمدن البروسية لم تكن الخسارة في الصراع التجاري مع انجلترا تعني لها الكثير على عكس ما هو الحال بالنسبة لأغلبية المدن الهانزية، فلقد دفع الصراع بالسيد الكبير، في أثناء الفترة من عام 788هـ/1386م إلى 790هـ/ 1388م إلى منع بروسيا من تصدير جميع السلع التي عليها طلب كبير في إنجلترا، وهو إجراء أثر أيضاً على المدن الهانزية الواقعة خارج بروسيا وهذا الحظر يهدف أساساً إلى منع التصدير السري عن طريق المدن الوندية[1].

أثار التوتر الحاصل بين النظام والمجموعة الغربية الهانزية في تسعينيات القرن الرابع عشر الميلادي حول تجارة نوفجورود قضايا ذات أهمية عامة. فالمدن البروسية لم تكن تنتمي إلى المجموعات الهانزية التي سمحت لها الرابطة بالإبحار إلى نوفجورود؛ ومن ثم كان محتماً عليهم أن يسلكوا الطريق البري أثناء سفرهم إذا كانوا يرغبون في الوصول إلى تلك البؤرة التجارية في المنطقة الشرقية بالبلطيق. وفي الفترة من عام 782هـ/ 1380م وحتى بداية القرن الخامس عشر فإن المدن البروسية والسيد الكبير كان يطالبان بالمساواة مع المدن الوندية ومدن ليفونيا Wendish and

(1) Postan, the Cambridge economic History of Europe, Vol. III, P. 391.

- قد قامت المنظمة، اعتباراً من النصف الثاني من القرن الرابع عشر، بالقيام بأعمال تجارية خارج بروسيا، عبر بحر البلطيق وبحر الشمال، دون الرجوع إلى رابطة مدن الهانزا التي كانت المنظمة عضواً فيها. وبالتالي أقحمت نفسها في منافسة حامية الوطيس مع أعضاء تلك الرابطة، خاصة الألمان منهم. فالمدن الرئيسية في كل من بروسيا وليفونيا كانت أعضاء في رابطة مدن الهانزا، وقد تمتعت بمزايا احتكار نقل البضائع القادمة من اسكندنافيا وغرب أوربا إلى روسيا وشرق ووسط أوربا، ونقل المنتجات الخام من تلك المناطق إلى الغرب. كل ذلك كان يتم في نطاق اتفاقيات معينة، حكمت تلك المجالات لضمان عدم استئثار أية مدينة أو هيئة بأية معاملات تجارية دون الرجوع إلى الرابطة. عن ذلك:
- محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص210، حاشية (4).
- عن النزاع الذي حدث بين الإنجليز والبروسيين – رعايا النظام التيوتون – ومحاولات حله، والذي امتد في عهد الملك ريتشارد الثاني (1377-1399)، وخليفته هنري الرابع (1422- 1461م) وأثره على العلاقات الأنجلو هانزية انظر:

- Lloyd (T.H.), **A Reconsideration of Two Anglo- Hanseatic Treaties of the Fifteenth century**, in HER, Vol.102, No.405 (Oct., 1987), PP.917-918.

Livonianفي التجارة إلى نوفجورود. ولقد قابلت الرابطة هذا المطلب بحجج القصد منها هو المراوغة والتأخير والاعتراض ولم تمنح المدن البروسية هذا المطلب حتى جاء عام801هـ/1398م عندما حصل البروسيون على امتيازات كما فُتح لهم سوق جديد في ليتوانيا Lituania[1]، ومن ثم قلت رغبتهم في تجارة نوفجورود[2].

سهلت تلك التوترات والصراعات في فهم أن المنظمة كانت شريكاً متطفلاً إلى حد ما بالنسبة للمدن الهانزية ولم تكن مألوفة. حتى بالنسبة للمدن البروسية – والتي كانت السياسة الدولية للمنظمة تدافع عنها بطرق عديدة – فإن السيادة المالية المشتركة والمنافسة التجارية مع التجار الذين يعملون لحسابهم الخاص أصبحت بغيضة. وفي السنوات الأولى من القرن الخامس عشر الميلادي بلغ رأس مال كبار حاشية كونيجستبيرج Konigsberg، ومارينبيرج Marienburg، مائة ألف مارك بروسي تحت تصرفهم، وهو مبلغ كبير جداً مقارنة بموارد أي شركة تجارية مستقلة. وعلى سبيل المثال فإن هذا مكن المنظمة من بناء سفن كبيرة جداً لتتحدى سفن الشحن الهانزية. وقبل عام 809هـ/ 1406م فإن ثلث جباية بفاندزول Pfindozll في بروسيا ذهبت للمنظمة – وبعد عام 809هـ/1406م أصبح ثلثيه – ومن ثم اتسعت مواردها المالية عن طريق الرسوم المفروضة على التجارة الخاصة بالتجار الذين يعملون لصالحهم. لقد لعبت هذه الظروف دوراً كبيراً في تهجير المدن التي سقطت بسبب المنظمة بعد معركة تاننبرج Tannenberg[3]. تلك المعركة التي كانت بين قوات بولندا وليتوانيا[4] من جهة وقوات الفرسان التيوتون من جهة أخرى، حيث تجمعت هذه القوات في الأول من شهر يوليو عام 1410م

(1) ليتوانيا Lituania: تُعد ليتوانيا أحد جمهوريات البلطيق السوفيتية الثلاث (ليتوانيا ولاتفيا واستونيا). عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. III, P.972.

(2) Postan, the Cambridge economic History of Europe, Vol. III, P. 391.

(3) Postan, the Cambridge economic History of Europe, Vol. III, PP. 391-392.

(4) عن الأحداث التي وقعت بين عامي 1382-1410م عقب وفاة لويس ملك بولندا، والفوضى التي عمت بولندا وصولاً إلى الاتحاد فيما بين بولندا وليتوانيا عام 1386م، والأحداث السياسية فيما يتعلق بكل من بولندا وليتوانيا ومنظمة الفرسان التيوتون حتى عام 1410م. انظر:

- Jan Długosz, The annals of Jan Długosz: Annales Seu Cronicae in litiregni Polonia, English trans. M. Michael, London, 1997, PP. 335-374.

على نهر فيستولا ثم اتجهت شمالاً نحو بروسيا، وانتهت هذه المعركة بانتصار الفريق الأول انتصاراً حاسماً، وسقط السيد الكبير لمنظمة الفرسان التيوتون قتيلاً في الميدان، مما جعل بروسيا تبدو فريسة سهلة أمام الغزاة المنتصرين[1]. على أن المقاومة التي أبدتها قلعة مارينبورج Marieburg – حاضرة الفرسان التيوتون ومعقلهم – جعلت تقدم البولنديين يبدو صعباً، ومن ثم انتهى الموقف بعقد صلح ثورن Thorn الأول[2]، عام 1411م، وبذلك أتيحت فرصة لمنظمة الفرسان التيتون لكي تعيش نصف قرن آخر من الزمان[3].

لقد أوقفت هزيمة المنظمة في تانبرج عام 813هـ/ 1410م الزحف الألماني نحو الشرق Drang Nach Osten، والذي استمر قرابة ثلاثة قرون ونصف القرن. وبالرغم من أن المنظمة لم تخسر الكثير بموجب معاهدة سلام ثورن، إلا أنه يبدو واضحاً أن العصر الذهبي لما يطلق عليه "دولة المنظمة" في منطقة شرق أوربا قد ولى إلى غير رجعة[4].

ويبدو أن الهزيمة التي لحقت بالتيوتون في تانبرج جاءت مصحوبة بانحلال داخلي في نظامهم وانقسام في حكومتهم. هذا في الوقت الذي أثارت سياسة التيوتون الاقتصادية غضب تجار العصبة الهانزية بسبب تطرفهم في فرض ضرائب جديدة لمواجهة نفقات الموقف الحربي[5]. إذ أن

(1) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص 629.
- أطلق الألمان على هذه المعركة اسم تانبرج، بينما أسماها البولنديون جرونوالد Grunwald، وذلك لأنها وقعت بالقرب من قرية تانبرج، جنوب بروسيا وقرية جرونوالد في شمال بولندا. لمزيد من التفاصيل عن أحداث هذه المعركة ونتائجها انظر:
- محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص 180- 186.

(2) صلح ثورن الأول: عقد في الأول من فبراير عام 1411م، بين الملك البولندي ومنظمة الفرسان التيوتون ونص على عدة أمور منها التزام كل من الفرسان التيوتون، وبولندا وليتوانيا على التعاون فيما بينهم في أية أنشطة صليبية مستقبلية الغرض منها نشر المسيحية. عن ذلك انظر:
- محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص 183- 184.

(3) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص 629.
- عن المفاوضات التي تمت بين الطرفين وصولاً إلى توقيع صلح ثورن عام 1411م. انظر:
- Jan Długosz, The annals of Jan Długosz, PP.375-408.

(4) محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص ص 185- 186.

(5) سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص 629.

obeikandl.com

العلاقات بين منظمة التيوتون ورابطة الهانزا بدأت تتراجع بشدة بعد كارثة تانبرج، وذلك لأن الرابطة كانت ترى في المنظمة حليفاً قوياً لها في صراعها ضد الدانمارك على بعض الامتيازات التجارية في حوض البلطيق.

وبعد هزيمة المنظمة فقدت مكانتها لدى تجار ومدن الرابطة، وبناءً عليه تقلصت المعاملات التجارية بين الطرفين بدرجة كبيرة، وفقدت منظمة التيوتون أهم مصدر من مصادر دخلها، وإن كان بشكل تدريجي[1].

يتضح لنا مما سبق أن منظمة الفرسان التيوتون اتبعت في غضون القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين نظاماً سياسياً وإدارياً كان غاية في الدقة والكفاءة، وتمكنوا من خلاله من إدارة مساحة شاسعة من الممتلكات، قلما كان لها مثيل في أوربا في تلك الفترة. كما تمكنوا أيضاً من بناء قوة سياسية واقتصادية وعسكرية جعلت لهم السيادة على مناطق شرق أوربا وحوض البلطيق الشرقي. بيد أن الهزيمة المنكرة التي لحقت بها في تانبرج، صاحبها انهيار داخلي في بنيان المنظمة وفي هذا التنظيم الإداري، الذي اعتمدت عليه قوتها وصلابتها. هذا الانهيار كان أخطر في آثاره على المنظمة من أية هزيمة عسكرية، حتى إذا كانت في حجم تانبرج، وبالتالي كان سبباً رئيسياً في سقوطها فيما بعد[2].

3- العقوبات التي فرضتها الهانزا على أعضائها المخالفين:

ضمت الهانزا بين جنباتها أعداداً كبيرة من التجار، ونجحت في تأسيس مؤسسة قوية سيطرت على معظم التجارة التي تمر بالمنطقة الجغرافية الواسعة في أوربا الشمالية لعقود طويلة. بفضل ما وجد بين تجارها من تعاون بين بعضهم البعض، وتنظيم وترتيب كذلك في تبادل السلع والموارد الحيوية. وبفضل جهودها العظيمة في حفاظها على ذاتها فإن الرابطة الهانزية دامت لقرون[3]. وحتى تتمكن من تحقيق ذلك على الوجه الأكمل فإنها كانت تفرض واجبات على المدن التابعة لها وتنظيمات يجب السير عليها؛ إلا أن المدن التي انضمت إلى الرابطة لم تكن تسير على نمط واحد

(1) محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص211.
(2) محمد السيد صديق رشوان، منظمة الفرسان التيوتون، ص188.
(3) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, P. 38.

دائماً أو أنها لم تكن قادرة على الحفاظ على مكانتها والوفاء بالواجبات المفروضة عليها. وكثيراً ما تكون هذه المدن مذبذبة ويتم فصلها عن اتحاد الهانزا، وهذا لم يكن بالأمر الهين، كما أن تكاليف إعادة الدخول إلى الرابطة كان باهظاً. إذ أن الحرمان الذي كانت تفرضه الهانزا كان أشد نكاية من الحرمان الذي يفرضه البابا أو الإمبراطور[1]. فالمدينة التي تقع تحت طائلة الحرمان تخسر تجارتها في لمح البصر[2].

ويُعد هذا الحرمان صورة من صور العقوبات التي فرضتها الهانزا على المدن المخالفة لها، والذي أثبت فاعليته أكثر من مرة.

وهناك أمثلة قديمة على هذا الانحياز داخلياً ممثلاً في الحظر التجاري. فقد تم تنفيذ الحظر التجاري على ما يرام- وذلك في أول حظرين تم تطبيقهما على بروج Bruges في عام 679هـ/1280م وعام 707هـ/1307م- قبل الجهود النهائية لإضفاء الصبغة الرسمية على الكيان الهانزي. ومما لاشك فيه، فلكي ينجح الحظر لابد من تعاون كافة الأطراف. فلقد كانت الطريقة الوحيدة للحصول على امتيازات من الفلمنكيين تتمثل في جعلهم يعانون من الخسارة التجارية. وأيضاً فإن التوافق المطلق داخل المجتمع الهانزي حديث النشأة كان أمراً حتمياً. ويشير دولينجر Dollinger، إلى القوانين التفصيلية التي تم وضعها وكان واجباً على التجار أن يقسموا على المحافظة عليها. كما تم طلب شهادات يصدق عليها مصدر البضائع. وبذلك تم إقصاء المهربين من الرابطة وتم مصادرة بضائعهم. وقد كان لهذه الإجراءات الخاصة بالتنظيم الداخلي أعظم الأثر حيث أنها أدت إلى نجاح منقطع النظير لعمليات الحظر التجاري.

وعلى ما يبدو أن هذا النوع من التنظيم الذاتي كان ممكناً في السنوات السابقة على تبلور المؤسسة الهانزية. فلم يكتمل نضج الهانزا كلياً في اجتماعها الأول في عام 757هـ/1356م، عندما تغيرت الهانزا من هانزا التجار إلى هانزا المدن. وعلى مدار قرنين من الزمان وبعد تأسيس مدينة لوبيك في عام 553هـ/1158م فإن الاتحاد كان متفاوتاً نسبياً حيث كان يضم أفراداً (أكثرهم

(1) عقوبة الحرمان الكنسي: هو حكم يمنع الحاكم من ممارسة وظائف حكمة أو تحريم ممارسة العبادة في مكان معين ضد من وقعت عليه العقوبة. عن ذلك انظر:
- نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ2، ص 69، حاشية (20).

(2) Zimmern, the Hansa Towns, P. 83.

شركاء)، ومدناً والتي أدت دورها على أكمل وجه كوحدة مؤسسية متجانسة. وقد سعى الاتحاد الهانزي إلى إقامة علاقات دبلوماسية ناجحة مع الإنجليز كما قاموا بعمل حظر وحصار تجاري ضد الفلمنكيين، والنرويجيين، وخاضوا حرباً مع الدانماركيين، وأمنوا امتيازات تجارية لها أهميتها، وأنشأوا محطاتهم، كل ذلك قبل تشكيل هيئة حاكمة للهانزا[1].

لذلك نستطيع أن نؤكد هنا على أهمية العلاقات الدبلوماسية الناجحة التي أقامها أعضاء الهانزا في الخارج خاصة مع الإنجليز حيث تمكنوا من خلالها من تسيير عملياتهم التجارية وتنفيذ سياستهم في نفس الوقت بنجاح كبير.

لقد نبع هذا التوحد في الهدف نتيجة عدة عوامل، بعضها يرجع بوضوح إلى التشكيل الأول لروابط المدينة. فقد تم تأسيس انتماءات بلدية إقليمية لتعقب المصالح التجارية العامة ولتحقيق التناغم والانسجام بين أفراد التجار والمدن. وقد كان لها فاعليتها الكبيرة. فتحقيق الانسجام في عمل الرابطة تم التأكيد عليه من خلال خطر الإقصاء من الرابطة (على الرغم من أنه قلما ما كان يحدث إقصاء للمدن حتى بعد اكتمال نشأة الهانزا).

وبالطبع فإن التركيز الهانزي الفردي ظهر نتيجة للبناء السياسي للمدن المستقلة. فزيادة طبقة النبلاء من السكان المشتغلين بالتجارة أمر عزز من وحدة الهدف. كما أحدث مزيداً من التضامن، نتج عن العقوبات المفروضة على الألمان المقيمين بالخارج في المحطات. فالأحكام تتنوع حسب المحطة التجارية؛ إلا أن الهدف العام كان يتمثل في منع الاختلاط الاجتماعي مع السكان الأصليين ومن ثم الحفاظ على أمن المجمعات وسريتها[2].

إذاً فإن مدن الهانزا كانت تخشى خطر الإقصاء من الرابطة لأن ذلك كان يعرضها لفقدان تجارتها في لمح البصر، لذا فإن هذه المدن كانت تتجنب أن تتعرض لهذا الخطر ولعل هذا ما جعل المدن الهانزية في حالة ترابط وانسجام.

---

(1) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hansa, PP. 55-56.
(2) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hansa, PP. 56-57.
- من ذلك ما تم في المحطة التجارية في بيرجن Bergen، حيث كان يمنع أعضاء الهانزا منعاً باتاً من قضاء ليلة خارج المصنع حتى لا يتم إفشاء الأسرار الهانزية. عن ذلك انظر:
- Zimmern, the Hansa Towns, PP. 143-144.

لقد حدث التشكيل الرسمي للمؤسسة الهانزية في عام 757هـ/1356م استجابة للمشكلات المتجددة التي تواجهها التجارة في بروج. وقد كان أساس المشكلة متمثلاً في حرب الإنجليز مع الفرنسيين وما نتج عنها من آثار وخيمة على التجارة[1]. فقد أصبح الهانزيون في مركز بروج متورطين في المشكلات الواقعة بين بروج وإنجلترا وكانت الحاجة ماسة إلى الدخول في مفاوضات جادة. فلقد كانت مدن ألمانيا معنية بتجارة الثياب ومن ثم تمت الدعوة لعقد اجتماع للمجلس التشريعي للهانزا في لوبيك. وقد كان هذا أول تجمع للهانزا. وفي الوقت الذي لم تكن فيه العلاقات جيدة مع بروج، فإن المؤرخ دولينجر Dollinger، توصل إلى نتيجتين هامتين فيما يتعلق بالمؤسسة الهانزية في هذه الواقعة، أهمها يتمثل في أهمية الاجتماع الأول للأعضاء (وكما هو متوقع فإنه لم يعثر على سجل حضور لهذا الاجتماع)، لكن الأمر الآخر وهو لا يقل أهمية عن الأول يتمثل في التأثير على مركز بروج، ومن خلال التوجيه القوي لبعثة لوبيك التي أرسلت إلى بروج (ومن بينها الدبلوماسي الهانزي القدير جوردان بليسكو Jordan Pleskow)، فإن السلطة الهانزية الدائمة على المحطة قد تطورت وازدادت والتي سرعان ما أدت إلى سيطرة مركزية مستديمة على المحطات التجارية الأخرى[2].

ومن المدن التي عاندت وتشبثت برأيها ومن ثم تم طردها، على سبيل المثال، كانت مدينة بريمن Bremen، وذلك عام 757هـ/1356م لأن أحد مواطنيها تاجر مع الفلاندرز Flanders، في وقت كانت التجارة معها محظورة. وعليه فقد طالبت البلدية بمعاقبته وأخذ

(1) كانت الحرب بين الإنجليز والفرنسيين دائماً ما ينتجع عنها إضراراً بالتجارة خاصة فيما يتعلق بالفلاندرز لأن صناعة الثياب به كانت تقوم على الصوف الخام الإنجليزي؛ وعليه فإن أي حرب بينهما كانت تضر بهذه الصناعة خاصة مع الحظر المتبادل؛ مثلما قام الملك هنري الثالث Henry III – أثناء حربه مع لويس التاسع Louis IX ملك فرنسا في عام 1242م– بمنع تجارة الصوف المربحة مع القارة مما أضر فالفلمنكيين المهتمين بشراء الصوف من انجلترا، قد أصدر الملك الفرنسي أوامره بمنع التجار الإنجليز الذين يعبرون ببضاعتهم عبر مملكته، وبناءً عليه أصدر ملك انجلترا أوامره أن يعامل التجار الفرنسيين في انجلترا نفس المعاملة. عن ذلك انظر:=

- Matthew of Paris, English History, translated by J. A. Giles, Vol. I, H. G. Bohn. Ed., London, 1852, A. D. 1242, P. 410.

(2) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hansa, P. 57.

حصته، ونتيجة لذلك فقد تم فصل المدينة عن الهانزا لمدة ثلاثين عاماً، وكانت هذه الأعوام الثلاثين أعواماً عجافاً؛ كتب أحد شهود العيان المعاصرين لها "أصاب المدينة الفقر ونمى النجيل في طرقاتها وحل الجوع والخراب في بيوت ساكينيها". وفي نهاية المطاف عادت بريمن إلى وضعها السابق لكنه كان لزاماً عليها أن تحمل مسئوليات ثقيلة ككفارة لها على ما ارتكبته من جرم[1].

وفي حادثة أخرى؛ وقعت مدينة برونسويك Brunswick، في أيدي الصناع (أصحاب الحرف) الساخطين الذين تزعموا التمرد والعصيان في العديد من المدن ضد الرابطة. وعليه قامت الهانزا بإصدار مرسوم شديد اللهجة نتجت عنه نفس التبعات التي وقعت على مدينة بريمن[2]. إذ من قوانين عام 768هـ/1366م للمجلس الهانزي المحلي في لوبيك دليلاً واضحاً على قضية الحرمان من العضوية. "وقد قررت المدن وأصدرت مرسوماً يقضي بأنه لا يحق لأي شخص أن يتمتع بامتيازات الألمان إلا إذا كان مواطناً من مواطني مدن الهانزا الألمانية"، وفي المرسوم الصادر عام 777هـ/1375م، والذي أعلن من خلاله إقصاء برونسويك، بعد مشاركتها في الإطاحة بزعمائها.

وبالتالي فإن مدن الهانزا الألمانية- مستقلة عن غيرها من المدن التي تتقاسم معها نفس الامتيازات- وافقت بالإجماع وبالتراضي التام على إقصاء سكان برونسويك من الرابطة وتجريدهم من الحقوق والامتيازات التجارية. كما يمنع أي تاجر يتمتع بالامتيازات التجارية في الفلاندروز أو انجلترا أو الدانمارك أو النرويج أو نوفجورود أو في أي مكان آخر من التعامل معهم أو يعقد صفقات تجارية من أي نوع معهم سواء في البر أو البحر أو عن طريق البيع أو الشراء ومن يفعل ذلك فقد أنذر بالمساس بشرفه ومصادرة أملاكه"[3]. لقد كان البؤس والجوع الذي تعرضت له المدينة علاجاً ناجحاً لها وفي نهاية الأمر وبعد ستة أعوام فإن المدينة المحظورة تم قبولها بالرابطة مرة أخرى. وألزمت بإرسال ممثلين عنها إلى مدينة لوبيك لتقديم اعتذار يحمل كل معاني التذلل وكان على هؤلاء الممثلين أن يقبلوا أغلب الشروط المهينة التي ينص عليها.

وإلى جانب الشئون الخاصة بالإدارة الداخلية فإن سكان برونسويك أخذوا على عاتقهم بناء كنيسة في المدينة تكفيراً عن سلوكهم غير القويم الذي سلكوه، كما قرر السكان إيفاد الحجاج

(1) Zimmern, The Hansa towns, P. 83.
(2) Zimmern, the Hansa towns, P. 85.
(3) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hansa, P. 57.

إلى روما Rome، وتكليفهم بطلب العفو البابوي عما اقترفه الثوار من قتل للمستشارين. وفي الموكب سار اثنان من رؤساء بلدية مدينة برونسويك وثمانية من كبار مواطنيها متذللين، مكشوفوا الرأس، حافية أقدامهم، يحملون الشموع في أيديهم من كنيسة السيدة العذراء في لوبيك وحتى مبنى المدينة حيث قاعة مجلس الرابطة League، وأمام هذا الحشد الكبير الضخم جثي هؤلاء على ركبهم للاعتراف بتوبتهم وندمهم على ذنوبهم وما بدر منهم، وللتوسل إلى حلفائهم أو شركائهم بأن يعفوا عنهم لأجل محبة الله، وتوقيراً للسيدة العذراء Virgin Mary[1].

وقد برهنت العقوبات المستمرة على قدرتها على دعم السلطة الهانزية على مدار ما يزيد على قرن من الزمان[2].

ومع تتابع الأحداث في كل مرة كانت مدينة لوبيك Lübeck، تتقدم لتمسك بزمام الأمور من بين المدن الأخرى. فقد كانت قوانينها هي المتبعة في المجلس التشريعي العام للهانزا. فهذه القوانين كانت تعد بأنها أحكم قوانين وضعها مجتمع مستقل، ولا تزال تذكر هذه القوانين بالاحترام والتقدير.

لقد توسلت العديد من المدن البعيدة مثل المستعمرات اليونانية والتي توسلت بالنار المقدسة التي أشعلتها من المذابح المحلية من أجل الحصول على حق استخدام قانون لوبيك وكان هذا التوسل مصحوباً بلهفة شديدة[3].

استطاعت الهانزا في النهاية أن تظهر في شكل مؤسسي وعلى الرغم من أن أعضاءها لم يلقوا دعماً من الإمبراطورية؛ إلا أنهم جميعاً أقروا قانوناً يختص بترويج تجارتهم وحمايتها. ومن أجل تحقيق ذلك فإنهم حققوا قوة اجتماعية ذات أبعاد اقتصادية يعجز القلم عن وصف ما لها من أهمية.

إن تاريخ العصور الوسطى مليء بالأمثلة عن الممالك التي هددتها المجاعات وهددتها النفقات العالية للحروب. وكذلك هددتها منافسات طبقة النبلاء الغنية. وفيما يتعلق بسماسرة التجارة التي تذهب إلى مسافات بعيدة من انجلترا إلى روسيا، فإن الهانزا أثرت تأثيراً مباشراً على استقرار الحكام الإقطاعيين، وساعدت على بروز السياسة الاقتصادية الرشيدة، كما ساعدت على

(1) Zimmern, the Hansa towns, P. 85.
(2) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hansa, P. 57.
(3) Zimmern, the Hansa towns, P. 85.

obeikandl.com

تمهيد الطريق لعصر جديد من الدول التجارية والدول القومية[1].

يتضح لنا مما سبق أن الهانزا قد تمكنت من إحراز مكانة بارزة في اقتصاد أوربا العصور الوسطى بفضل ما سنته من قوانين وتماسك أعضائها والتزامهم جميعاً بهذه القوانين وإلا تعرضوا لعقوبات قاسية.

فكان لما حصلت عليه من امتيازات وما سنته من قوانين وما طبقته من عقوبات أكبر الأثر في نجاحها التجاري وسيطرتها الاحتكارية كذلك.

4- صراع اتحاد الهانزا مع فالديمار الرابع ملك الدانمارك ونتائجه.

قامت علاقات وثيقة بين ألمانيا German والدانمارك Denmark، منذ زمن بعيد. إذ أن ملوك الدانمارك قاموا بمنح الامتيازات للألمان الذين تواجدوا في منطقة البلطيق Baltic من أجل ممارسة التجارة والتي تضمنت امتيازات حرية التجارة. خاصة أن الألمان قد نجحوا في اختراق منطقة البلطيق منذ زمن مبكر من العصور الوسطى، ولعل ما جذبهم لذلك كانت الإمكانيات الاقتصادية الكبيرة لتلك المنطقة، والرغبة في السيطرة على شعوبها الوثنية، والأهم من كل ذلك تأمين حدودهم الشرقية[2]. ومن تلك الامتيازات ما قام به الملك فالديمار الثاني Waldemar المنتصر (599-

---

(1) Quesenbery, the Institutional Success of the German Hansa, P. 2.

- كان على جميع تجار الهانزا المقيمين داخل المحطات التجارية الالتزام بقوانين الهانزا كذلك، كالتزامهم بالعزوبية داخل مركز بيرجن وكان هذا أمراً مفروضاً عليهم، وإلا تعرضوا لعقوبات قاسية. عن ذلك انظر:

- Zimmern, the Hansa towns, PP. 143-144.

(2) محمد السيد صديق، منظمة الفرسان التيوتون، ص26.

- كان السلاف والبطليقيون يمثلون مصدر قلق بالنسبة للألمان، وكانوا يشكلون بالنسبة لهم "وباء على طول الحدود"، وفي نفس الوقت فريسة للهجوم والاستيلاء على الغنائم ودفع الجزية. لذلك خطط أوتو الأول Otto I- وهو أحد الأباطرة القلائل الذين كرسوا جهداً كبيراً لحدود ما وراء نهر الإلب، وهي الحدود الشرقية لألمانيا- لضم كل الشعوب السلافية والبلطيقية إلى الإمبراطورية الألمانية التي اعتزم تشييدها. وفضلاً عن حملاته التي قام بها لإخضاع تلك الشعوب، نجده يصبغ بعض المقاطعات الشرقية بالصبغة العسكرية، والواقع أن الحملات التي خرجت من ألمانيا لإخضاع الشعوب السلافية والبلطيقية الوثنية لم تكن حكراً على الملوك والأباطرة الألمان فحسب، ولكننا نجد الكثير من الأمراء والدوقات الذين قاموا بجهود مضنية في هذا الشأن، كدوق سكسونيا. عن ذلك انظر:

- محمد السيد صديق، منظمة الفرسان التيوتون، ص27.

639هـ/1202-1241م) ملك الدانمارك الذي سيطر على كثير من أراضي البلطيق عن طريق الغزو وكان قادراً على منح امتيازات في جنوب السويد Sweden، مركز التجارة للوبيك Lübeck، حيث شكلت سكانيا Scania جزءً من الأراضي الدانماركية.

وهكذا اتسعت تجارة لوبيك في هذا الاتجاه في بحر الشمال وكذلك الاتجاهات الأخرى[1]. وقد ظلت مقاطعة سكانيا ضمن أملاك الدانمارك حتى عام 1069هـ/1658م.

وقد تحول الدانماركيون- وهم شعب بحري- إلى النصرانية تحت وطأة السيف على يد أباطرة ألمانيا وخلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي مارس هؤلاء الأباطرة سلطات كبيرة على ملوك الدانمارك. وعليه فإن التجار الألمان حصلوا بكل سهولة على امتيازات بين الشعوب التي ليس لها ميول للتجارة ولكنها تقبل المنتجات التي يجلبها الغرباء إلى بلادهم وبخاصة المزر المسكر القادم من جهة الشرق[2]. وقد تمكنت لوبيك التي تزعمت مدن الهانزا Hanse- من الحصول على العديد من الامتيازات في تلك الجهات والتي استفادت منها في ممارسة البيع والشراء بحرية[3].

وعلى الرغم من أن الأباطرة الألمان هم من قاموا بتحويل الدانماركيين إلى المسيحية؛ إلا أنه مع تدهور قوة الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا واشتداد قوة الدانماركيين بفضل الحكام الحكماء فإن الشعب صمم على كسر القيود المفروضة عليه وحاول تأمين استقلاله. وتحت قيادة فالديمار العظيم Waldemar The Great (552-578هـ/ 1157-1182م)[4].

اكتسبت البلاد مكانة مهمة عززها خلفاؤه من بعده. وقد تزامنت زيادة قوة الدانمارك مع اضمحلال قوة ألمانيا ومع تغير اتجاه وقت التفريخ الذي تستغرقه الرنجة في القرن الثاني عشر

(1) Cave, Coulson, A Source Book, P. 223.

- عن هذه الامتيازات انظر:

- Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A. D. 1203, P. 12.

(2) Zimmern, the Hansa towns, PP. 48-49.

(3) See: Grant of Market Privileges by Lübeck king Waldemar, in: Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A. D. 1203, P. 12.

(4) فالديمار العظيم: هو فالديمار الأول Waldemar I، الذي تمكن الدانيون تحت زعامته هو وخلفاؤه من غزو العناصر السلافية والإستونياويين Esthonians شرقاً. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوربا، ج1، ص607.

الميلادي[1].

والغريب أن هذه السمكة الصغيرة كان لها تأثير كبير على البشرية؛ إلا أن ذلك لم يتجاوز الحقيقة التي تقرر بأن الرحلات الغامضة لسمك الرنجة سيطرت لقرون عديدة على المسار الكامل لتجارة الشمال. ففي العصور الوسطى اعتمد ثراء ورخاء العديد من المناطق على ظهور الرنجة على الشواطئ هنا وهناك. فقد أصبح امتهان صيد الرنجة أحد فروع الصناعة التي تحدد مصير الأمم. وكانت الهانزا تمتلك نسبة كبيرة من الثروات والسلطات المتمثلة في مصادر أسماك الرنجة؛ إلا أنه بحلول عام 829هـ/1425م بدأت الأسماك تنحسر في المحيط الألماني؛ ومن ثم عثرت هولندا على حجر الأساس لتحقيق الثروة ورفعة المكانة[2].

إذاً نستطيع أن نستنتج مما سبق أهمية هذه السمكة الصغيرة في سطوع نجم بعض المناطق تجارياً وأفول بعضها الآخر تبعاً لاتجاه رحلات هذه السمكة وأن الهانزا حازت على مكانة مهمة تجارياً من تحكمها في مصايد أسماك الرنجة ولعلها كانت السبب الأساسي في الصراع الدائر بين الهانزا والهولنديين.

وفي ذلك الوقت أصبح الدانماركيون – بحكم أنهم ملاك المنطقة والمضيق– في حالة رغبتهم يضايقون تجار الهانزا وصائدو الأسماك. وقد ظل الدانماركيون أو بمعنى أدق المدن الهانزية لا تستخدم قوتها التي اتسمت دائماً بالدهاء الدبلوماسي الذي تميزوا به وذلك تجنباً لاحتمالية حدوث خطر عن طريق تقديم تنازلات محسوبة عن الضرائب أو منح بعض الامتيازات. ومع ذلك فلا تزال احتمالية حدوث نزاعات قائمة فالأمور لا تسير دائماً في سلام؛ ففي عام 625هـ/ 1227م

(1) Zimmern, the Hansa towns, P. 49.

– كانت للرنجة مكانة كبيرة في تجارة الهانزا ومن يزور مبنى سكوتينج القديم بلوبيك (Old Schutting at Lübeck)؛ حيث كان هذا المبنى هو المكان الذي اعتاد منه صيادي سمك الرنجة الشروع في رحلاتهم، ويلاحظ بعينيه ما يحمله من أشياء نبيلة حيث يوجد ثلاث أسماك من الرنجة على درع من الذهب الخالص؛ فإنه سوف يرجع بذاكرته إلى الوراء لعدة قرون ليتذكر أن هذه السمكة كانت هي رمز القوة حيث بدأ الكثيرون في ذلك الوقت الاشتغال بالتجارة أو الحروب الضرورية التي من خلالها مارست الأجيال سلطات كبيرة على أوربا الشمالية. عن ذلك انظر:

- Zimmern, The Hansa Towns, P. 48.

(2) Zimmern, the Hansa towns, P. 49.

حققت الهانزا أولى انتصاراتها العسكرية على الدانماركيين في معركة بورنهوفد Bornhoved، كما عملت تلك المدن على تقليص قوة جيرانها المناوئين لها في ألمانيا الشمالية[1].

ولم تكن مهمة مدن البلطيق سهلة في حماية نفسها من ملوك الدانمارك (الذين كانوا بمثابة الخطر الرئيسي على تلك المدن) حيث كانت قوة هؤلاء الملوك متزايدة.

هذا فيما يتعلق بقوتهم؛ أما فيما يتعلق بطمعهم وجشعهم فقد كان على نفس ما كانت عليه قوتهم وهذا ما جعلهم ينظرون إلى المدن التجارية الغنية برغبة ملحة ليجعلوها تحت سلطانهم. ورغم اتساع هذه المدن؛ إلا أنها كانت فقيرة، وبالنسبة لسكان تلك المدن فلم يكونوا صناعاً ولا أغنياء. أضف إلى ذلك، أن الدانماركيين Danes والنرويجيين Norwegians والسويديين Swedes، كانوا في خصومة دائمة مع بعضهم البعض وكل دولة من هذه الدول كانت تنظر بعين طامعة إلى مدن البلطيق المزدهرة، وترغب كل واحدة منها في بسط نفوذها عليها. ومن ناحية أخرى فقد كانت هناك قوتان في اسكندنافيا Scandinavian، على وجه الخصوص تزعج التجار الألمان دائماً بسبب فهمهم الضئيل لنصوص المعاهدة فقد كانوا ينقضون العهد؛ ولم يكن بمقدورهم المفاضلة بين تلك الممالك الثلاث عندما تصطدم مطامعهم مع بعضهم البعض مما يؤدي إلى اشتعال الحرب الأهلية بينهم عندئذ تتوحد تلك الممالك في ممارسة سياسة السلب والنهب.

ومن الصعب إحصاء عدد المعارك التي وقعت هناك؛ والتي نتجت من الغيرة والحسد وكذلك الطمع الذي دفع تلك الممالك في الأعوام الأولى من القرن الرابع عشر إلى وضع العراقيل لتجار الهانزا، ومن ثم فإن الحاجة دفعت هؤلاء التجار إلى أن يتكاتفوا معاً في الداخل كما هو حالهم في الخارج، وكان عليهم أن يكونوا يقظين دائماً آخذين حذرهم، من أي تصرف يشوبه الطمع الذي يؤدي إلى خرق الامتيازات[2].

ورغم كل ذلك، إلا أن التحالف بين المدن لم يكن تحالفاً من أجل الحرب حتى ذلك

(1) Zimmern, the Hansa towns, PP. 49-50.
(2) Zimmern, the Hansa towns, PP. 50-51.

– عن الممالك الإسكندنافية في نهاية العصور الوسطى. انظر:

- Postan, the Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.380-385.

الوقت وإنما كان تحالفاً دفاعياً[1]. فقد اتحدت هذه المدن ضد محاولات النرويج فرض تعاريف أو جمارك إضافية على الربحة ومن أجل السعي مراراً وتكراراً من أجل الحصول على الامتيازات التجارية في سكانيا Scania وذلك من نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. فقد تحالفت المدن الوندية ولوبيك في عام 707هـ/ 1307م وكان ذلك تحت حماية ملك الدانمارك؛ إلا أن روستوك Rostock وفيسمار Wismar بعد فترة وجيزة وكانا في صراع معها وفي عام 708هـ/1308م نجد شترالسوند Stralsund، وجرايفسفالد Greifswald، إلى جانب فيسمار وروستوك يتحالفون تحالفاً دفاعياً وثيقاً دون مشاركة لوبيك، والتي شاركتهم فيما بعد في عام 710هـ/ 1310م، على الرغم من أن القرارات كانت لا تزال معلقة ولم يتم اتخاذ شيء ضد ملك الدانمارك[2].

ظلت التحالفات قائمة بين هذه المدن حتى أنهم قاموا بعدة مفاوضات مع النرويج Norway في أعوام متتالية في 710هـ/ 1310م، وفي عام 712هـ/ 1312م، وفي 733هـ/ 1332م وفيما وقفت لوبيك جنباً إلى جنب مع المدن الصربية وظلوا كذلك حتى أنهم أصدروا قرارات بالإجماع على اتفاقات السلام في عام 739هـ/1338م، و740هـ/1339م، وفي المفاوضات والصراعات ضد ملك الدانمارك في بداية الأربعينات[3].

كانت المفاوضات والصراعات بين الطرفين من أجل محافظة عصبة الهانزا على مكتسباتها التجارية داخل نطاق ممتلكات ونفوذ المملكة الدانماركية، والتي حصلت عليها بناءً على الامتيازات التي نالتها من ملوك الدانمارك عبر سنوات طويلة؛ لأن بعض ملوك الدانمارك قاموا بإلغاء بعض هذه الامتيازات التي منحها لهم أسلافهم والتي قاموا أنفسهم بمنحهم إياها مما أدى إلى حدوث صدام

(1) قد تعددت التحالفات الدفاعية التي قامت بها العصبة الهانزية منذ بدايتها من أجل الحماية والدفاع ولعلها كانت سبباً في قوتها ونجاحها مثلما لاحظنا من قبل ولعل أبرزها كان اتفاق الحماية بين هامبورج ولوبيك في عام 1241م. عن ذلك انظر:
- Keutgen, Urkunden zur Stutischen, A. D. 1241, P. 521.

(2) Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundlag en der deutschen Hanse, PP. 257-258.

(3) Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundlag en der deutschen Hanse, PP. 258-259.

بينهما. ومن ذلك ما قام به الملك فالديمار الرابع Waldemar IV[1]، (1340-1375م)، الذي كان يسعى إلى الحفاظ على مكتسبات دولته وإقصاء الأجانب الذين يستغلونها في مصالحهم الحربية والتجارية. فقد وجد بلادة صغيرة مزقتها الفرقة والنزاع، وبعد عشرين عاماً من حكمه استطاع تحقيق نجاحاً ملحوظاً ومكاسب، فقد جعل من الدانمارك دولة ذات مكانة رهيبة في الداخل والخارج. وكان يعرف في التاريخ باسم فالديمار الرابع Waldemar IV ، كما يعرف في القصص والأناشيد بفالديمار أيترداج Waldemar Atterdag وهي كنية عن النقاط البارزة في شخصيته[2].

سعى فالديمار إلى تحقيق أهدافه بجد ومثابرة تباينت مع الوضع المتردي لمعاصريه في سُدة الحكم في الشمال، وقد كانت مدن البلطيق خاصة مدينة لوبيك، رائدة المدن دبلوماسياً، تسير على نفس نهجه وقد تفوقت في نهاية الأمر حيث كانت تسير على نفس سياسة الجد والمثابرة[3].

وقد شن ملك الدانمارك أول هجوم على الهانزا، بدأ بتدخله في حقوق الصيد الخاصة بهم في سكانيا ناقضاً عهود أسلافه بل وأيضاً العقود التي أبرمها هو بنفسه وطالب برسوم مجحفة من أجل تجديد الامتيازات القديمة[4]. وعليه فقد تم عقد مفاوضات دبلوماسية لكن فالديمار خيب

(1) فالديمار الرابع: تولى عرش الدانمارك في عام 1340م وهو صبي صغير يبلغ اثنا عشر ربيعاً، ولأنه كان شاباً فقد برهن على قوته وعزمه وفي ظل عهده حازت الدانمارك ثروة عظيمة وكانت لها مكانة كبيرة؛ إلا أنه تحول في آخر حكمه إلى حاكم مستبد. عن ذلك انظر:

- Zimmern, the Hansa towns, P. 51.

- كان فالديمار قد ابتدأ في بداية حكمه بمنح امتيازات لمدن الهانزا في عامي 1340م-1341م، ومؤكداً لهم نفس الامتيازات السابقة. قبل أن يتبدل في موقفه معهم. عن هذه الامتيازات. انظر:

- Asfchenfeldt (ed.), urkundenbuch der stadt Lübeck, Zweiter theil, PP.652-653, 671.

(2) Zimmern, the Hansa towns, PP. 51-52.

- أيترداج Atterdag: تعني "هناك يوم آخر" والتي تشير إلى عادة الملك المستمرة في استخدام هذا التعبير ليقول بأنه إذا لم نصل إلى هدفنا اليوم فهذا لا يعني أنه صعب المنال لكن على المرء أن يتروى ولا يقنط أبداً أو لا يصرف نظره عن هدفه. عن ذلك انظر:

- Zimmern, the Hansa towns, P. 52.

(3) Zimmern, the Hansa towns, P. 52.

(4) عن نص الامتياز الذي منحه الملك فالديمار الرابع للهانزا في سكانيا في 21 مايو 1340م. انظر: =

آمال مفوضي المدن وأضاع وقتهم في مناقشات لا طائل منها وغير متعلقة بالموضوع أصلاً ورفض التوصل إلى اتفاق حقيقي. وبعد نقاش طويل لا ثمرة منه غادر سفراء مدن الهانزا إلى بلادهم ينتابهم القلق والإحباط[1]. وبعد عشرة أسابيع من عودتهم أذهلتهم أخبار محزنة وهي قيام فالديمار في وقت السلم التام وبدون سابقة إنذار بإعلان الحرب والهجوم المباغت على جزيرة جوتلاند Gothland، ومحاصرتها كما قام بطرد سكانها ونهب مدينة ويزبي Wisby الغنية التي كانت بمثابة الإمبراطورية الشمالية لثروة الهانزا[2]. ومعقل التجارة الهانزية والسيطرة على بحر البلطيق Baltic[3]. وعندما أصبحت هذه الجزيرة الغنية تحت حكم الدانمارك، أراد فالديمار أن يبدأ حكمة فيها بتحقيق مكاسب وأرباح كثيرة عن طريق زيادة عائدات الجمارك؛ إذ حاول جني الأموال بسرعة بزيادة الضرائب زيادة كبيرة[4]، مما أصاب التجارة الهانزية بأضرار بالغة[5]، فقد رأت المدن الألمانية أن تحركات فالديمار تؤثر على حرية تنقلهم وبالفعل وفي عام 758هـ/1356م تأثرت حركة المرور من هامبورج إلى الغرب نتيجة ذلك إذ رأوا فيها إعاقة لحركتهم البحرية خاصة مع سيطرته على مياه بحر البلطيق[6].

= - Asfchenfeldt (ed.), urkundenbuch der stadt Lübeck, Zweiter theil, PP.652-653.

(1) لقد أخذت مدن الهانزا ترفع العديد من الشكاوي لكونتات الهولشتاين ضد تصرفات الملك فالديمار ورغبة منها في كسبهم إلى صفها وذلك في عام 1342م. انظر:
- Asfchenfeldt (ed.), urkundenbuch der stadt Lübeck, Zweiter theil, PP.692-695.

(2) Zimmern, the Hansa towns, PP. 53-54.
- عن ذلك انظر أيضاً:
- Keppen, The world in the middle ages, Vol. II, PP. 544-545.
- Kiesselabach, Die wirtschafltichen Grundlag en der deutschen Hanse, P. 260.
- Colvin, The Germans in England, P.36.
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, PP. 32-33.

(3) Keppen, The world in the middle ages, Vol. II, P.545.
- Colvin, The Germans in England, P.36.
- Bjork, Three Hansa towns, P.298.

(4) Kiesselabach, Die wirtschafltichen Grundlag en der deutschen Hanse, PP. 260-261.
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, P.33.
- Colvin, The Germans in England, P.36.

(5) Kiesselabach, Die wirtschafltichen, P.261.

(6) Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, P.33.

لم يكن الهجوم الذي شنه فالديمار موجهاً صوب ويزبي فحسب؛ بل أيضاً صوب جميع المدن الهانزية ولذلك أصبحت المفاوضات الدبلوماسية التي عقدت مع فالديمار صورية. وهذا يعني الحرب، فالحرب بجميع ما يمتلك من مال ومهما كانت المخاطر.

قام فالديمار بحشد جيش عظيم في عام 763هـ/1361م مخبراً إياهم بأنه سوف يتولى القيادة بنفسه إلى مكان مملوء بالذهب والفضة إلى مكان تأكل فيه الخنازير في أحواض من الفضة. لكنه توجه بهم صوب جوتلاند ودفع بالعديد من الفرسان إلى تلك المنطقة وقام بطرح كثير من البشر أرضاً لأن الفلاحين لم يكونوا مجهزين بالسلاح وغير معتادين على الكر والفر. وبعدها هاجم مدينة ويزبي. فخرج أهلها لملاقاته واستسلموا لطاعة الملك لأنهم وجدوا أن المقاومة لا تجدي. وبهذه الطريقة استحوذ على الأرض وسلب من المواطنين أثمن كنوز المدينة من الذهب والفضة وبعد ذلك واصل السير[1].

عندئذ أدركت المدن الهانزية خطورة هذا الأمر لذلك تحالفت مدن هامبورج، وجرايفسفالد، ولوبيك، وفيسمار، وروستوك، وشترالسوند، وAnklam، وكييل، وفيردربيمن مع حكام الشمال الملك ماجنوس(1316-1374م)[2]، والملك هاكون Haakon (1355-1380م)[3]، وذلك في سبتمبر 1361 وأعلنوا الحرب على فالديمار[4].

وفيما يتعلق بالأخبار الأولى عن خيانة فالديمار فقد فرضت مدن البلطيق حظراً على جميع

(1) Zimmern, the Hansa towns, P.54.

(2) ماجنوس الثاني أريكسون Magnus II Eriksson: عاش في الفترة (1316-1374م) وقد تولى ملك السويد في الفترة من (1319-1363م)، والنرويج في (1319-1355م)، وقد كرس نفسه للدفاع عن سيادته السويدية ضد النبلاء المتمردين بمساعدة من الزعماء الأجانب المختلفين، والذي كان أبرزهم فالديمار الرابع أيتردج Waldemar IV Atterdag، ملك الدانمارك. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. VI, P.494.

(3) هاكون السادس Hakon VI: عاش في الفترة من (1340- 1380م) تولى حكم النرويج (1355-1380م)، تزوج من مارجريت Margaret ابنة الملك فالديمار الرابع، ملك الدانيين، عام 1363م، مما مهد الطريق للاتحاد في نهاية المطاف عام 1397م بين الممالك الإسكندنافية الثلاث وهي الدانمارك والنرويج والسويد. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. IV, P.821.

(4) Daenell, Die Blütezeit Deutschen Hanse, Vol. I, PP. 33-34.

البضائع الدانماركية، ثم دعت إلى عقد مجلس عاجل قررت فيه منع التعاون مع الدانمارك Denmark حتى لو أدى ذلك إلى الموت أو ضياع الملك، ثم اتصلت المدن بعد ذلك بالنرويج Norway، والسويد Sweden، من أجل دعم تحالف المدن أثناء الحرب، وحصلوا على تعهد بذلك لأنهم كانوا في عداء مع فالديمار، كما قرروا جباية ضريبة تجبي بالجنيه الإنجليزي على جميع السلع الهانزية المصدرة من أجل تغطية نفقات الحرب(1).

كانت هامبورج هي المسئولة عن تقديم الدعم المادي والعسكري للمدن؛ بل وعقد تحالفات مع معارضي الملك الدانماركي أمثال ماجنوس ملك السويد، وهاكون ملك النرويج؛ كما شارك البروسيون مشاركة ثانوية فيما بعد، وذلك نتيجة لظروفهم الخاصة ومنها ما أصاب تجارتهم وأدى إلى قيام اتصال بين تجار لوبيك وتجار روسيا وبروسيا الذين شاركوا في الدورة التجارية لتحقيق مصالحهم في المضيق لذلك لم يتمكنوا من تقديم مشاركة فاعلة بتقديم الأسلحة أو خلافه، وإنما قدموا الضريبة المفروضة بالجنيه لتدعيم الحرب ضد الدانمارك.

أما عن الهولنديين، فلم يسهموا أيضاً بالقدر المطلوب منهم في تقديم عون عسكري لهذا الحلف، وذلك لأنهم لم يكن لهم دوراً بارزاً في التجارة الروسية وبالتالي لم يكن لديهم الحماسة للمشاركة في النضال من أجل مصالحهم هذه(2).

---

(1) Zimmern, the Hansa towns, PP. 56-57.

- هناك عدد من الإيصالات التي قامت الهانزا بجمعها خلال حربها مع فالديمار أيترداج Waldemar Atterdag، ملك الدانمارك وذلك لتغطية تكاليف حرب الهانزا وكانت تجمع على السفن والبضائع من المدن، وقد صدرت الإيصالات في السنوات ما بين 1368-1371م وهي على جانب كبير من الأهمية وتعطي رؤى مثيرة للاهتمام، ليس فقط لأنها تعطي صورة عن التنفيذ العملي للمدن الساحلية ذات السمة التجارية؛ ولكن لأنها تعطي صورة كاملة عن المدن من العديد من النواحي وبروتوكول الهانزية الخاصة بضريبة الجنيه؛ إلى جانب الكثير من التفاصيل الشخصية والمذكرات التاريخية والتجارة قد تمثلت فيها، إلى جانب أن هذه الإيصالات المختومة هي ذات أهمية تاريخية.

- Mantels(W.), Belträge zur Lübisch Hansisichen Geschichte ausgewalhte historische arbeiten,JENA,1881, P.233.

- عن جمع ضريبة الجنيه. انظر:

- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen, PP.261-262.
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, PP. 39-41.

(2) Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundlag en der deutschen, P.261.

قامت جرايفسفالد، وروستوك، وشترالسوند، ولوبيك، وفيسمار، وKolbery، وتشيتتشن، Anklam، وكييل، وهامبورج، وبريمن، بالإعداد للحرب وتجهيز السفن التي دفعوا بها إلى المضيق[1]. وبذا استعد الأسطول للحرب في أسرع وقت ممكن وعندما أعدت العدة أرسلت المدن إنذاراً بالإعلان الرسمي عن الحرب إلى فالديمار[2].

وفي مايو من عام 764هـ/1362م ظهرت سفنهم في المضيق وقد أحرز الجنود انتصاراً فائقاً في البداية. وتم سلب وتدمير مدينة كوبنهاجن Copenhagen، وحمل أجراس كنيستها إلى لوبيك كغنيمة من الغنائم التي أحرزها المنتصر[3]. أما في سكانيا Scania فقد سعى أهلها إلى الانضمام إلى حلفائهم الشماليين للاشتراك معهم ولبسط أيديهم على الحصون الدانماركية في البر، لكنهم لم يتمكنوا من تحقيق ذلك إما بسبب نقص المال أو الخوف الذي منعهم من الوفاء بعهدهم. وعليه فقد وجد حاكم لوبيك جوهان ويتنبورج Johann Wittenborg– قائد الأسطول الهانزي– نفسه مضطراً إلى الاستعانة برجاله الذين معه على السفن في الهجوم البري، وذلك لأنه تيقن أنه لن يحقق انتصاراً بحرياً، لكن هذا القرار كان متهوراً وقد دفع ويتنبورج حياته ثمناً له[4]. وعلى ما يبدو أنه ظن أن حصن هلسينجبورج Helsingborg's. قد وقع في يده– فقد حاصره لمدة ستة عشر يوماً بالمنجنيق– إلا أن فالديمار ظهر بأسطوله فجأة على ساحل سكانيا Scanian الأمر الذي أحدث حالة من الدهشة والارتباك في بعض سفن الهانزا التي فرت جميعها ما عدا مجموعة قليلة، وغنم فالديمار اثنا عشرة سفينة من أجود سفنهم وأغلب إمداداتهم وأسلحتهم، فوجد ويتنبورج نفسه مضطراً إلي الانسحاب مع من تبقى معه من الجيش إلى لوبيك

(1) Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen, PP.261- 262.
(2) Zimmern, the Hansa towns, P.57.
(3) Colvin, The Germans in England, P.36.
- Keppen, The world in the middle ages, Vol. II, P.545.
- Zimmern, the Hansa towns, P.57.
(4) Zimmern, the Hansa towns, PP.57-58.
- Quesenbery, the Institutional Success of the German Hansa, P.53.
- لمزيد من التفاصيل عن المصير الذي لاقاه ويتنبورج انظر الفصل الخامس من الرسالة مبحث (امتلاك الهانزا لقوات عسكرية خاصة) ص ص294-295.

ليلقى مصيره السابق[1].

بعد الهزيمة القاسية التي لحقت بويتنبورج قامت المدن بإبرام هدنة مع فالديمار، وعقدت معاهدة تحولت إلى سلام دائم، أما بالنسبة للمدن فإنها لم تكن لديها رغبة في الحرب، نتيجة لما أصاب التجارة من انحسار أضف إلى ذلك أن نفقات الحرب تجاوزت حساباتهم، كما أن الأوقات لم تكن مناسبة والمحصول غير كاف، والطعام قليل، وظهر الوباء الأسود مرة أخرى في أوربا وعم جميع المناطق[2].

عقد فالديمار العزم على تدمير الهانزا كلية، وبدأ ذلك بخدعة في المفاوضات الدبلوماسية[3]، فرغم أنه أكد لهم كافة الامتيازات التي تم حصولهم عليها في الدانمارك، بحيث يمكنهم التجارة في سكانيا وحرية المضى أو التقدم في الأسواق دون عائق[4]؛ إلا أنه خلال الهدنة قام بمهاجمة مستوطنات الرنجة في سكانيا، بل وقام بالاستيلاء على بعض سفن التجار التي تمر في هذه المنطقة[5].

عقدت المدن مجلساً قدم فيه فالديمار شروطه، لكنه نكث بعهده مرة أخرى وذلك بعد زفاف ابنته الوحيدة مارجريت Margaret– المعروفة تاريخياً باسم سميراميس Semiramis الشمال– إلى هاكون Haakon وريث عرش السويد، والنرويج، ومن ثم تم الإعداد لاتحاد يجمع الممالك الشمالية الثلاث تحت تاج واحد، وهنا دب الفزع بين مدن الهانزا وشعرت أنها لن تحمي

(1) Zimmern, the Hansa towns, P. 58.
- عن هزيمة الهانزا في هلسينجبورج في يوليو 1362م. انظر:
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, P.34.
- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen, P.262.
(2) Zimmern, the Hansa towns, P.60.
- قد اضطرت المدن الهانزية وقف إطلاق النار في نوفمبر 1362م، خاصة مع ما كان تعانيه من نقص في الأموال، وعبثاً حاولت الدائرة الوندية، والمدن البروسية، والمدن الهولندية، وليفونيا توفير المساعدات العسكرية؛ إلا أنها لم تتمكن إلا من مواصلة جمع واجب أو ضريبة الجنية. عن ذلك انظر:
- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen, P. 262.
(3) Zimmern, the Hansa towns, P. 60.
(4) Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, Vol. 1, P. 34.
(5) Zimmern, the Hansa towns, P.60.
- عن موقف فالديمار مع المدن البروسية والوندية والامتيازات الخاصة بالألمان. انظر:
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse,Vol. I, PP. 34-35.

استقلالها[1].

فعلى الرغم من أن الملك فالديمار عقد اجتماعاً في مساء يوم 22 نوفمبر 767هـ/1365م، مع المدن الساحلية من مدن ألمانيا الهانزية ووقع معهم سلام اليمين المضمونة، إلا أنه انتهج سياسة مغايرة لذلك، وهو ما دفع لوبيك Lübeck ومعها تجار الشرق والغرب والجنوب والشمال إلى مكاتبه البابا أوربان الخامس Urban V (764-772هـ/1362-1370م)[2]، وتقديم شكواهم ضد الملك المنغمس في الملذات والبكاء بصوت عال على ما يقوم به من النهب المتواصل والسجن، والقتل، والآثام الأخرى، وقد طلب الإمبراطور شارل الرابع Charles IV (756-780هـ/1355-1378م)[3]، تفسيراً لذلك؛ لأن تجارهم عندما يتوجهون إلى ملك الدانمارك وإلى الممتلكات التابعة له يعاملون معاملة سيئة، وليس هناك فقط وإنما في جميع الموانئ البحرية، فتحدث عمليات تدمير، لذلك طالبوا منع هذا الضرر لأن المدن لم تعد تتحمل. كما قدمت لوبيك وغيرها من المدن الوندية وملك السويد، ودوقات مكلنبورج Meklenburg، وكونت هولشتاين Holstein وفرسان جوتلاند وعمال المناجم، وكذلك المدن البروسية، وزيلاند Seelands وهولندا Hollands و Zuidersee، شكوى ضد الملك

(1) Zimmern, the Hansa towns, PP.60-61.
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, Vol. I, P. 35.

(2) أوربان الخامس Urban V: كان أوربان من أصول نبيلة، وقد انضم إلى البندكتيين، وفي وقت لاحق درس القانون في أفينون Avignon. وأصبح مقدماً لدير سانت جيرمان St. Germain وأوكسير Auxerre في عام 1352م، وفي عام 1361م تولى Victor St.، وMarseilles. وفي 28 سبتمبر عام 1362م انتخب خلفاً للبابا أنوسنت السادسInnocent VI، وتوج في أفينون (مقر البابوية من 1309-1377م). عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. X, P.293.

(3) شارل الرابع Charles IV: عاش شارل الرابع في الفترة من (1316- 1378م)، وكان ملك بوهيميا Bohemia (1346-1378م) ثم تولى الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1355-1378م) وعرف كراعي للفنون والعلوم. وقد سعى إلى توسيع سلطته من خلال العلاقات الدبلوماسية، وبالزواج وغيرها من الوسائل السلمية وأصدر القانون الذهبي Golden Bull، والذي أصبح بمثابة دستور الإمبراطورية. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. II, P.757.

فالديمار وضد المتواطئين معه. وعليه فإنه إذا كان الأمر دفاعاً عن حقهم ومكتسباتهم فسيكون حق لهم سيحصلون عليه بموافقة الله؛ وعليه فإن الإمبراطور لم يمانع في استعادة هذا الحق أو تحقيقه. وقد تكررت رسالة لوبيك هذه إلى البابا والإمبراطور مرة أخرى في 12 مارس عام 770هـ/1368م[1]. وهو ما يجعلنا ندرك حجم المعاناة التي كانت تعانيها المدن الهانزية من تصرفات الملك فالديمار وإنها قد استنفدت كافة الطرق الدبلوماسية في التفاوض معه وكذلك كافة وسائل الضغط السلمية؛ إلى جانب أنها كانت تبرر بذلك موقفها وتصرفاتها أمام البابا والإمبراطور في نفس الوقت والحصول على دعمها أو على الأقل عدم معارضتها عند مواجهتها للملك فالديمار.

وهكذا بعد فترة طويلة من العمل الدبلوماسي والمفاوضات، وبعد اجتماعات القيادة التي لا تنتهي نجح التحالف الكبير في اتخاذ القرارات الهامة في كولونيا Köln في نوفمبر 769هـ/1367م ضد فالديمار فقرروا جميعاً إعلان الحرب ضده[2]. وقد شارك في هذا الاجتماع ممثلين عن البلطيق Baltic، والمدن الداخلية، وصدر فيه الدستور التأسيسي المقرر العمل بموجبه لأعضاء العصبة الهانزية Hanseatic League، ولا تزال القاعة التي اجتمعوا بها في مدينة كولونيا تحمل حتى الآن اسم قاعة Hansa Room. ومن المؤكد أنه في تلك القاعة تم ولأول مرة صياغة القوانين وتعديلها وتحديثها وتغييرها على مدار الزمن، وهذا كان بمثابة الأساس للرابطة. غير أنه لا توجد وثيقة هانزية قديمة غير تلك المعروفة باسم اتحاد كولونيا Cologne Confederation، وعندها التقى ممثلو السبعة وسبعين مدينة للإعلان بجدية أنه "بسبب الأخطاء والإهانات التي قام بها ملك الدانمارك في حق التجار الألمان فإن المدن ستتكاتف معاً معلنة عداءها له بكل إخلاص". كما تقرر أن تقدم المدن الضعيفة أو النائية مساعدتها الفاعلة في الحرب عن طريق تقديم الإعانات المالية. كما تم الاتفاق أيضاً على أن هذه المدن التي لم تشارك في الحرب تكون خارج الرابطة ولا يمثل سكانها أو تجارها شيئاً مهماً سواء في عمليات البيع والشراء معهم كما لا يسمح لهذه المدن بالدخول إلى موانئ الهانزا أو تحميل بضائعهم في مناطق نفوذها.

(1) Mantels, Belträge Zur Lübisch Hansischen, PP. 235-236.
(2) Mantels, Belträge Zur Lübisch Hansischen, P. 236.
- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen, PP. 264-265.
- Daenell, Die Blütezeit Deutschen Hanse, Vol. II, PP. 38-39.

وقد تم تحذير فالديمار بما أجمعت عليه المدن ضده، لكنه استخف بهم وشبههم بسرب من الأوز، يجعله يسد أذنيه كي لا يسمع قوقتهم[1]؛ كأنهم كالأوز يصدرون أصواتاً بدون فعل، غير أن هذه لم تكن المرة الوحيدة التي تم فيها تحذير فالديمار؛ وعندما حُذر ثانية قام بتهديد المدن بأنه سوف يشتكيهم إلى سادتهم الرومان وأعضاء مجلس اللوردات ومن بينهم البابا والإمبراطور، إلا أن المدن استبقته إليهم، كما رأينا، فقد أرسلوا نسخاً من خطاب يبين معاناتهم مع الملك الذي وصفوه (بالطاغية والقرصان) إلى نحو من ثلاثين من سادتهم الرومان وأعضاء مجلس اللوردات. بل أنه في خطاب لوبيك للإمبراطور اعتذرت عن عدم استجابتها لدعوة شارل الأخيرة للانضمام إلى بعثته الرومانية بحجة الصعوبات التي تواجهها داخلياً؛ بينما توجهت بالشكر المشوب بالتذلل على الشرف الذي نالته بهذا العرض. وقد قدمت المدينة أيضاً مبررات عن عدم دفعها الضريبة التي قرر الملك شارل العام الماضي دفعها لفالديمار، حيث كتب هذا الملك: "نطلب سحب مدينتك "لوبيك Lübeck" من الإمبراطور والإمبراطورية". فقد عاشت حياة بائسة لأن الإمبراطور كان يعيش بعيداً عنهم وكان عليه أن يحمي بسلاحه رعاياه الضعاف والمهمشين في المنطقة الشمالية للإمبراطورية من أجل ذلك فإن جلال الإمبراطور يجب ألا يؤخذ على غير محمل إذا قامت المدن التي تحظى بالعناية الإلهية بفعل شيء ما تجاه حمايتها[2]. وهو ما يؤكد حرص المدن على علاقاتها الطيبة مع الإمبراطورية وإيضاح الأمر للإمبراطور حتى يدرك مقدار معاناتها.

وفي خطاب حمل كل معاني الخنوع آنذاك، أوضحت لوبيك فيه لحاكمها أنها تسعى إلى الاعتماد على نفسها حيث أنها كانت على علم تام بعدم استقرار سيادتها.

ومع أن فالديمار قد تم تحذيره أكثر من مرة من القوة المتزايدة، وهو هدف جاد لا تتوانى عنه الرابطة، وعلى ما يبدو أنه في هذه المرة انزعج، ومن ثم حاول إقصاء عدد من الأعضاء عن الرابطة وجذبهم إلى صفة. وقد تسلم من المدن التي فتح معها قنوات للنقاش الرد التالي والذي يبرهن على مدى التزامهم التام والكامل بالرابطة. وقد جاء الرد على النحو التالي: (إن العصبة الهانزية Hanseatic League، قد عزمت على الحرب فيجب على أعضائها أن يخضعوا لهذا

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP. 61-63.
(2) Zimmern, The Hansa Towns, P. 63.

القرار العام الملزم لهم"[1]. ويتضح جدية هذا الأمر بالفعل من قيامهم بالاستعدادات اللازمة من اجل هذه الحرب، وقد كانت أهم مسألة في هذا الأمر هي جمع التكاليف اللازمة لهذه الحرب، والتي تم توفيرها عن طريق ضريبة الجنية[2]. حيث أن المدن التجارية الأعضاء في العصبة الهانزية كانت تدفع ضرائب منتظمة للإنفاق على جيش العصبة وأسطولها[3]. وكانت هذه الضرائب تجمع على التجارة من أجل الحرب، وكانت المدن قد قررت ذلك بالفعل في حربها الأولى ضد ملك الدانمارك عام 763هـ/ 1361م وأتمت ذلك بنجاح، وفي تحالف عام 769هـ/ 1367م أحرزت نجاحاً كبيراً وأموالاً أكثر وفرة[4].

وهكذا ما بين عشية وضحاها كبر الأوز ذو القوقأة والذي استهان بها فالديمار وتحول إلى نسور مرعبة. وقد انضم عدد من اللوردات والأمراء إلى العصبة League، وواعدوهم بالدعم؛ حيث أن العديد منهم كان لديه دافع للثأر لما أصابه من أذى. وعليه فقد نصبت الهانزا على السويد ملكاً منافساً وناجحاً، وأصبح هدفها الأوحد الآن متمثلاً في إقصاء الدانمارك، وتقسيم مقاطعاتها على أصدقائها وحلفائها، ولم تكن ترغب في استعادة ملكيتها. فكانت هذه سياستها الدائمة والتي تتمثل في تقييد الممتلكات الفعلية، لكن على الجانب الآخر يجب أن تكون هذه الممتلكات في أيدي أصدقائها الذين سوف يخلعون عليها الامتيازات والحصانات المطلوبة للتجارة. وبناءً عليه يمكن تطبيق ذلك على ما قاله الرومان. للشعوب التي أخضعتها "أنا لا أطلب منكم الذهب، لكن أرغب في حكم البلاد التي تمتلك الذهب". وبهذه الاختلافات فإن الهانزا كانت ترغب في أن تحصل على المكاسب التي توجد هناك دون أن يكون لديها الرغبة في قهر تلك

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP. 63-64.
(2) Mentels, Belträge zur Lübisck Hansischen, PP. 236-237.
- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen, P. 265.
- Daenell, Die Blütezeit Deutschen Hanse, Vol. 1, PP. 39-40.
(3) نعيم فرج، الحضارة الأوربية، ص148.
(4) Mentels, Belträge zur Lübisck Hansischen, P.237.
– عن القرارات التي اتخذت بشأن ضريبة الجنيه، والإجراءات ضد المقصرين في دفعها، وإعفاء البعض منها. عن ذلك انظر:
- Mentels, Belträge zur Lübisck Hansischen, PP. 237- 251.

المقاطعات[1].

وفي يوم الأحد الموافق السادس عشر من إبريل لعام 770هـ/ 1368م، تقابلت جميع سفن الهانزا في المضيق لشن هجوم موحد على زيلاند Zealand، واقتربت أيام عيد الفصح، وكانت ألمانيا الشمالية بأسرها تنتظر بشغف اللحظة الحاسمة لبدء القتال؛ وعندما علمت المدن فجأة بأنه في يوم خميس العهد Mandy Thursday، هرب فالديمار خلسة من المناطق التي يحكمها بسبب خوفه من القوة التي ظهر عليها أعداؤه وتقريرهم خوض القتال ضده، وركب سفينة محملة بالكنوز رست على الشواطئ البومرانية، Pomeranian Coasts، متجهاً إلى الشرق لتجنب الصدام المتوقع، تاركاً نائبه مكانه وخول له عقد اتفاقية سلام أو خوض الحرب.

لم يكن هروب فالديمار ليغير من إرادة المدن، لأن طبول الحرب دقت في نفس الشهر وامتدت طوال فصل الصيف، ورغم ضعف المقاومة لمدن الهانزا، وبحلول فصل الشتاء تم عقد هدنة، – على غرار ما كان يحدث في تلك العصور؛ لكن بحلول فصل الصيف تجدد القتال مرة أخرى وعلى مدار عامين (770- 771هـ/ 1368- 1369م)، أغارت خلالها سفن الهانزا مراراً على شواطئ الدانمارك ومياهها، وقامت بسلب ونهب ثرواتها. وكانت مدينة ويزبي Wisby من أكثر المدن التي نهبت، وبرهنت الحرب على أهمية الاتحاد والذي تم ترسيخه في المؤتمر الذي نص على وجوب استمرار الحرب حتى تطالب الدانمارك بالسلام وهي صاغرة.

كان قائد لوبيك هو برون وارندروف Brun Warendorf، ابن رئيس البلدية بها، قد لقي حتفه في المعركة، ولكن أعماله الباسلة تم تخليدها في النصب التذكاري للمدينة والذي تم تشييده في جوقة المرتلين في كنيسة القديسة ماري St.Mary، وهكذا نرى أن مدينة لوبيك قد كرمت هؤلاء الذين ساهموا في رفعتها ومجدها[2].

وفي نهاية عام 771هـ/ 1369م، كانت الدانمارك قد أُنهكت وسئم شعبها الحرب، لذا سارعوا من أجل إبرام معاهدة للسلام، وعليه فإن المدن السبعة والسبعين التي سخر منها فالديمار

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P. 64.
(2) Zimmern, The Hansa Towns, PP. 64-65.
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, Vol.1, PP. 41-42.
- Kiesselbach, Die Wirtsehaftlichen, PP. 265- 270.

ووصفها بالأوز قامت بإملاء شروطها. ولقد وقع بالفعل عدد من الملوك على هذا السلام (سلام شترالسوند Peace of Stralsund عام 772هـ/ 1370م).

وكان هذا بمثابة إذلال كبير لإمبراطورياتهم, وظلوا يطالبون بثلثي إيرادات سكانيا Scania، وامتلاك حصونها لمدة خمسة عشر عاماً، وأن يمروا بالمجان عبر المضيق، وحق المشاركة أو الانتخاب لاختيار حاكم الدانمارك، كما حصلوا إلى جانب ما سبق على عدد من الامتيازات والحصانات المهمة الأخرى.

وعلى كل فإن هذه البنود التي اشتملت عليها الاتفاقية كانت بمثابة إذلال للدانمارك وفي الوقت ذاته أدخلت البهجة على مدن الرابطة[1]. أما الفقرة الأخيرة في تلك المعاهدة التاريخية والمعروفة باسم معاهدة شترالسوند Stralsund والتي جعلت من الهانزا قوة من الدرجة الأولى، وهذه الفقرة وردت كالتالي:- "ملكنا – الملك فالديمار – سيحكم المدن التي نصت عليها البنود السابقة في اتفاقية السلام، ويختم أحكامه بخاتم الدولة، ذلك إذا رغب في البقاء حاكماً لمملكته ولم يوكل الحكم إلى حاكم آخر. فإذا رغب ملكنا فالديمار في التنازل عن الدانمارك في حياته، فإننا لن نسمح بذلك، اللهم إلا إذا وافقت المدن على ذلك ويلتزم الملك بالموافقة على امتيازاتهم التي سيمنحها لهم ويختمها بخاتمة. وأيضاً فإن سيدنا وملكنا فالديمار إذا مات – أطال الله بقائه – فإننا لن نقبل بأي حاكم إلا بالتشاور مع المدن".

ويتجلى لنا من هذه الفقرة أن الهانزا فقدت الثقة في فالديمار وخافت أن يتذرع ببعض الذرائع للتهرب من الالتزامات المنصوص عليها في المعاهدة التي أبرمت بإسمه من قبل نائبه الذي عينه. وبعدها تمت الموافقة على أن يلتزم فالديمار بالتوقيع على هذه الوثيقة خلال ستة عشر شهراً؛

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP. 65- 67.

وانظر كذلك:

- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen, PP. 270-271.
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, Vol.1, PP.42-44.
- Quesenbery, the Institutional Success of the German Hanse, P. 15.
- Colvin, The Germans in England, PP.36- 37.
- Keppen, The World in the Middle Ages, Vol. II, PP.544-546.

- فشر، تاريخ أوربا، جـ1، ص ص 228- 229؛ نعيم فرج، الحضارة الأوربية، ص148؛ سعيد عاشور، تاريخ أوربا، جـ1، ص597؛ بيرين، تاريخ أوربا، ص182.

فإذا لم يقم بالتوقيع خلال هذه المدة فإن المجلس الدنمركي والمملكة سيكونوا ملزمين بالوفاء ببنود هذه المعاهدة "حتى إذا لم يصدق الملك على ذلك".

ورغم ما تحمله تلك الشروط من إهانة، حيث أنها أخضعت الدانمارك كلها للعصبة؛ إلا أن فالديمار وقع عليها في الوقت المحدد فقد رأى نفسه مهزوماً ووحيداً. وحتى عندما حاول الاستنجاد أو تقديم رشوة من أجل مساعدته للقضاء على أعدائه باء ذلك بالفشل، لكراهية الجميع له، حتى الذين وعدوه بالمساعدة لم يفوا بوعدهم[1].

وبعد التوقيع على معاهدة السلام هذه ترك فالديمار منصبه؛ ليس هذا فحسب؛ بل ربما يكون فارق الحياة آنذاك؛ فلقد خاب أمله وتحطمت روحه المعنوية ومن ثم اعتلت صحته. وبعد ذلك بأعوام قليلة قضي نحبه عام 577هـ/ 1375م، بعد أن توسل إلى مدن الهانزا لاستعادة قلاعه في سكانيا Scania دون فائدة[2].

لقد مكنت معاهدة شترالسوند التجار الألمان من فرض سيادة الهانزا على اسكندنافيا، أي على الممالك الشمالية وقد عبر عن ذلك الملك جوستافوس فاسا Gustavus Vasa قائلاً: "الممالك الثلاثة المهمة تحت رحمة الهانزا".

ومن ثم انتهت معركة الهانزا العظيمة ضد ملك الدانمارك، تلك الحرب التي تُعد علامة مهمة في تاريخها ونموها.

وقد أصبح للرابطة بعد ذلك وضع آخر مختلف، ليس فقط على أرضها؛ بل أيضاً في مواجهة أوربا جميعاً فالنجاح هو مفتاح النجاح، أما بالنسبة للفلاندرز Flanders، وفرنسا، وإنجلترا فكان عليهم جميعاً الاعتراف بأن هناك قوة جديدة قد بزغت في شمال ألمانيا؛ فالحرب لم تبرهن على مدى قدرة الرابطة على خوض الحروب إذا دعت الحاجة إليها فحسب؛ بل برهنت أيضاً على مدى قدرتها على تنظيم نفسها تنظيماً جيداً، وجمع الشتات من أجل المصلحة العامة، وعلى أنه ليس من الحكمة بل ومن الخطورة بمكان الوقوف في وجه مطالبها الخاصة بالامتيازات

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP. 67-68.
(2) Zimmern, The Hansa Towns, P. 68.
- Daenell, Die Blütezeit Der Deutschen Hanse, Vol.1, P.44.

obeikandl.com

والحقوق التجارية[1].

وهكذا نجد أن الهانزا التي تزعمتها لوبيك Lübeck قد وصلت إلى مكانة كبيرة كإمبراطورية تجارية وليس أدل على ذلك مما كتبه السائح الإيطالي الموهوب إيناس سلفيوس في عام 863هـ/ 1458م "إن لوبيك الألمانية بلغت من وفرة الثروة والقوة ما جعل كلاً من الدانمارك والسويد والنرويج يرى من الطبيعي أن يكون تعيين ملوكها أو عزلهم رهن مشورتها المحلية"[2].

وليس أدل كذلك على المكانة التي حازتها لوبيك من أنه بعد معاهدة السلام وما حازته من نصر أن أعلن الإمبراطور شارل الرابع Charles IV أنه ينوي تشريف "المدينة الإمبراطورية الحرة الحبيبة إلى قلبه مدينة لوبيك" بالزيارة، ولقد كان فردريك بربروسا Frederick Berbarossa، هو آخر إمبراطور مر من أبواب تلك المدينة ومنذ ذلك الحين لم يمر إمبراطور من بعد عبر أبوابها، وعلى ما يبدو أن أعضاء مجلس شورى المدينة لم يكونوا مخطئين عندما نظروا إلى هذا المطلب على أنه اعتراف إمبراطوري ضمني بالانتصارات العظيمة التي حققتها الهانزا، تلك الانتصارات التي لعبت فيها مدينة لوبيك دور القائد[3]. وجاءت الزيارة بالفعل في خريف عام 777هـ/1375م لتؤكد بذلك على تفوق اتحاد الهانزا على الاتحادات الأوربية المماثلة، وكيف أنها نجحت في التصدي لكل من حاول حرمانها من امتيازاتها التجارية التي حازتها ومكنتها من تثبيت نفوذها وتفوقها التجاري في الشمال. إلى جانب أن ملوك أوربا أصبحوا يخشون بأسها وينشدون محالفتها.

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP. 68-69.
(2) فشر، تاريخ أوربا، جـ1، ص ص 228- 229؛ نعيم فرج، الحضارة الأوربية، ص148.
(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.73.
- عن الزيارة وتفاصيلها انظر نفس المرجع السابق، من ص ص 73-81.

obeikandl.com